منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2074) السنة الثامنة - السبت (19) اذار 2011

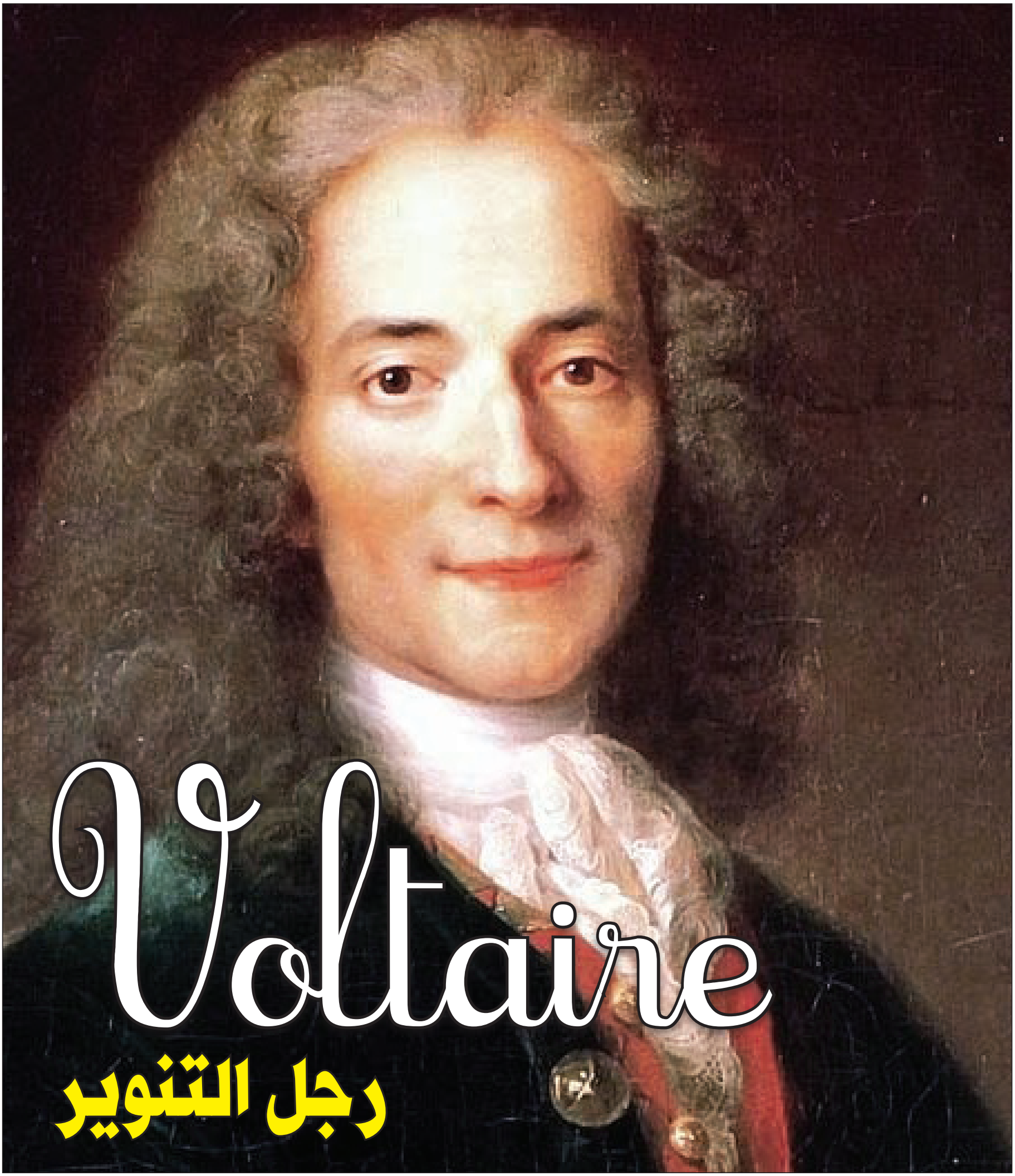

Voltaire

رجل التنوير

فولتير

فرانسوا ماري أرويه المعروف باسم فولتير (بالفرنسية: Voltaire) من مواليد (٢١ تشرين الثاني ١٦٩٤) ووفيات (٣٠ ايار ١٧٧٨)، فولتير هو اسمه المستعار. كاتب فرنسي عاش في عصر التنوير، وهو أيضًا كاتب وفيلسوف ذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الظريفة ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة.

وكان فولتير كاتبًا غزير الإنتاج قام بكتابة أعمال في كل الأشكال الأدبية تقريبًا؛ فقد كتب المسرحيات والشعر والروايات (الرواية) والمقالات (المقال) والأعمال التاريخية والعلمية وأكثر من عشرين ألفًا من الخطابات، وكذلك أكثر من ألفين من الكتب ومنشورات.

وكان فولتير مدافعًا صريحًا عن الإصلاح الاجتماعي على الرغم من وجود قوانين الرقابة الصارمة والعقوبات القاسية التي كان يتم تطبيقها على كل من يقوم بخرق هذه القوانين. وباعتباره ممن برعوا في فن المجادلة والمناظرة الهجائية، فقد كان دائمًا ما يحسن استغلال أعماله لانتقاد دوغما الكنيسة الكاثوليكية والمؤسسات الاجتماعية الفرنسية الموجودة في عصره.

وكان فولتير واحدًا من العديد من الشخصيات البارزة في عصر التنوير (إلى جانب كل من مونتسكيو وجون لوك وتوماس هوبز وجان جاك روسو) حيث تركت أعماله وأفكاره بصمتها الواضحة على مفكرين مهمين تنتمي أفكارهم للثورة الأمريكية والثورة الفرنسية.

اعداد: زينة الربيعي

سنواته المبكرة في دنيا الأدب

ولد فرانسوا ماري أرويه في باريس، وكان الأخ الأصغر لخمسة من الأطفال – والطفل الوحيد الذي عاش منهم – ولدوا لوالده الذي كان يدعى فرانسوا أرويه – الذي ولد في عام ١٦٥٠ أو عام ١٦٥١ وتوفي في كانون الثاني من عام ١٧٢٢. وكان يعمل موثقًا عامًا وموظفًا رسميًا صغيرًا في وزارة المالية. وكانت والدته هي ماري مارجريت دومارت (التي امتدت حياتها تقريبًا منذ عام ١٦٦٠ وحتى الثالث عشر من شهر تموز من عام ١٧٠١)، وكانت تنحدر من أصول نبيلة تنتمي لمقاطعة بواتو. وتلقى فولتير تعليمه في إحدى مدارس اليسوعيين؛ وهي مدرسة Collège Louis-le-Grand (في الفترة ما بين عامي ١٧٠٤ و١٧١١) حيث تعلم اللغة اللاتينية، كما أصبح في فترة لاحقة من حياته بارعًا في اللغتين الإسبانية والانجليزية.

وعندما أنهى فولتير دراسته، كان قد عقد العزم على أن يصبح كاتبًا بالرغم من أن والده كان يريد أن يصبح ابنه محاميًا. ولكن فولتير الذي تظاهر بأنه يعمل في باريس في مهنة مساعد محام كان يقضي معظم وقته في كتابة الشعرَ الهجائي. وعندما اكتشف والده الأمر أرسله لدراسة القانون؛ ولكن هذه المرة في المقاطعات الفرنسية البعيدة عن العاصمة. ولكن فولتير استمر في كتابة المقالات والدراسات التاريخية التي لم تتصف دائمًا بالدقة على الرغم من أن معظمها كان دقيقًا بالفعل. وأكسبه الظرف الذي كانت شخصيته تتصف به شعبية في دوائر العائلات الأرستقراطية التي كان يختلط بها. واستطاع والد فولتير أن يحصل لابنه على وظيفة سكرتير السفير الفرنسي في الجمهورية الهولندية حيث وقع فولتير في هوى لاجئة فرنسية تدعى كاثرين أوليمب دانوير. وأحبط والد فولتير محاولتهما للفرار معًا والتي ألحقت الخزي به، وتم إجبار فولتير على العودة إلى فرنسا مرة أخرى.

ودرات معظم السنوات الأولى من حياة فولتير في فلك واحد وهو العاصمة الفرنسية – باريس. ومنذ تلك السنوات المبكرة – وما تلاها من سنوات عمره – دخل فولتير في مشكلات مع السلطات بسبب هجومه المتحمس على الحكومة وعلى الكنيسة الكاثوليكية. وقد أدت به هذه الأنشطة إلى التعرض مرات عديدة للسجن وللنفي. وفي عام ١٧١٧ – وفي بداية العشرينات من عمر فولتير – اشترك في المؤامرة المعروفة تاريخيًا باسم Cellamare conspiracy والتي تزعمها الكاردينال جيوليو ألبروني ضد فيليب الثاني؛ دوق أورليون والذي كان وصيًا على عرش الملك الصغير لويس الخامس عشر؛ ملك فرنسا (وكان الهدف من المؤامرة نقل الوصاية على العرش إلى ابن عم فيليب الثاني، وعم الملك الصغير – ملك إسبانيا؛ فيليب الخامس). وبحجة كتابته لبعض الأشعار الهجائية عن الأرستقراطية، والتي كان منها ما تعرض لشخص Régent (الحاكم/الوصي على العرش)، تم الحكم على فولتير بالسجن في سجن الباستيل لمدة أحد عشر شهرًا. وفي فترة سجنه في الباستيل، قام بكتابة أول أعماله المسرحية – Œdipe – (أوديب). وكان نجاح هذه المسرحية هو أول ركائز شهرته الأدبية.

أسباب اختياره لاسم فولتير

ويعتبر اسم «فولتير» الذي اتخذه الكاتب في عام ١٧١٨ كاسم قلمي مستعار وكاسم يستخدمه في حياته اليومية [بحاجة لمصدر] نوعًا من أنواع الجناس التصحيفي لكلمة AROVET LI ؛ وهي الطريقة التي يتم بها هجاء لقبه – Arouet – باللغة اللاتينية مضافًا إليها الحروف الأولى من اللقب le jeune (الأصغر). وللاسم صداه في الترتيب العكسي لمقاطع اسم château (قصر ريفي عائلي) في مقاطعة بواتو. وهو القصر الذي كان يطلق عليه اسم Airvault. ويعتبر الكثيرون أن اتخاذه لاسم «فولتير» الذي جاء بعد الفترة التي تم فيها احتجازه في سجن الباستيل علامة على انفصاله الرسمي عن عائلته وماضيه.

ويؤيد ريتشارد Richard Holmes هولمز – المؤلف البريطاني والباحث في السير الذاتية لأعلام الحركة الرومانسية في بريطانيا وفرنسا – هذا الرأي عن مصدر اشتقاق الاسم، ولكنه يضيف إن كاتبًا مثل فولتير قد اتخذ هذا الاسم أيضًا لما له من معنى ضمني يوحي بالسرعة والجرأة. هذا المعنى الذي يأتي من اقتران الاسم بكلمات مثل: voltige (الألعاب البهلوانية التي يتم أداؤها على أرجوحة البهلوان أو الحصان)، وvolte-face (الالتفاف لمواجهة الأعداء)، وvolatile (وهي الكلمة التي تشير أساسًا إلى أحد المخلوقات المجنحة). ولم يكن لقب «Arouet» اسمًا من أسماء النبلاء ليناسب شهرته التي كانت قد بدأت في التزايد خاصةً وأن للاسم صداه في كلمات مثل: à rouer (الجلد بالسوط) وroué (بمعنى الفاسق).

انكلترا

وكانت الاستعداد الشخصي – الذي ذاع بسببه صيت فولتير في عصرنا الحالي بين جمهور القراء – لحسن استخدام حضور البديهة النقدية التي كان يتمتع بها والتي كانت تتميز بالسرعة وحدة النظر والصرامة والطرافة هي ما جعلت من فولتير شخصية غير محبوبة بين الكثيرين من معاصريه؛ بما في ذلك الكثيرين ممن ينتمون للطبقة الأرستقراطية الفرنسية. وكانت ردود فولتير اللاذعة مسؤولة عن فترة المنفى التي خرج بمقتضاها من فرنسا ليستقر في انكلترا.

وبعد أن قام فولتير بإهانة النبيل الفرنسي الشاب – كافلييه دي روهان – في وقت متأخر من عام ١٧٢٥، استطاعت أسرة روهان الأرستقراطية أن تحصل على lettre de cachet – وهو مرسوم موقع من ملك فرنسا (وكان الملك هو لويس الخامس عشر في عصر فولتير) يتضمن عقاب استبدادي لأحد الأشخاص، ولا يمكن استئناف الحكم الذي جاء فيه. وهو نوع من الوثائق التي كان يشتريها أفراد طبقة النبلاء الأثرياء للتخلص من أعدائهم غير المرغوب فيهم. واستخدمت أسرة روهان هذه الضمانة في بداية الأمر للزج بفولتير في سجن الباستيل، ثم التخلص منه عن طريق النفي خارج البلاد دون أن يتعرض لمحاكمة أو يسمح له بالدفاع عن نفسه. وتعتبر هذه الواقعة علامة بارزة في تاريخ بدء محاولات فولتير لتطوير نظام القضاء الفرنسي.

واستمر نفي فولتير إلى انكلترا لمدة عامين، وتركت التجارب التي مر بها هناك أكبر الأثر في العديد من أفكاره. وتأثر فولتير الشاب بالنظام البريطاني الملكي الدستوري مقارنةً بالنظام الفرنسي الملكي المطلق، وكذلك بدعم الدولة لحرية التعبير عن الرأي وحرية العقيدة. كذلك، تأثر فولتير بالعديد من كتاب عصره الذين ينتمون للمدرسة الكلاسيكية الحديثة، وزاد اهتمامه بالأدب الانجليزي الأقدم عمرًا – خاصةً أعمال شكسبير – التي لم تكن قد نالت قدرًا كبيرًا من الشهرة في أوروبا القارية في ذلك الوقت. وبالرغم من إعلانه اختلافه مع قواعد المدرسة الكلاسيكية الحديثة، فقد رأى فولتير أن شكسبير يعتبر من النماذج التي يجب أن يقتدي بها الكتاب الفرنسيين لأن الدراما الفرنسية بالرغم من كونها تتميز بالجمال أكثر من الدراما الانجليزية، فإنها تفتقر للحيوية على خشبة المسرح. وفي وقت لاحق – وبالرغم من أن تأثير أعمال شكسبير قد بدأ يتزايد على الأدب الفرنسي – فقد حاول فولتير أن يضع نموذجًا يتعارض مع مسرحيات شكسبير يشجب فيه ما اعتبره همجية من جانبه.

وبعد قضائه لفترة قاربت الثلاث سنوات في المنفى، عاد فولتير إلى باريس وقام بنشر آرائه حول الموقف البريطاني من الحكومة ومن الأدب ومن العقيدة في صورة مجموعة من المقالات التي تأخذ شكل الخطابات بعنوان Lettres

philosophiques sur les Anglais (Philosophical letters on the English) ولأن فولتير قد اعتبر أن الملكية الدستورية البريطانية أكثر تقدمًا واحترامًا لحقوق الإنسان (خاصة في الجانب الذي يتعلق بالتسامح الديني) من نظيرتها الفرنسية، فلقد لاقت هذه الخطابات اعتراضات كبيرة في فرنسا لدرجة القيام بإحراق النسخ الخاصة بهذا العمل وإجبار فولتير مرةً أخرى على مغادرة فرنسا.

Château de Cirey (قصر سيراي الريفي)

في واجهة الكتاب الذي قام بترجمته لنيوتن – والذي تظهر فيه دو شاتوليه في صورة ملهمة فولتير – تتضح الأفكار السماوية التي أوحى بها نيوتن إلى فولتير. وكانت وجهة فولتير التالية هي Château de Cirey (قصر سيراي الريفي) الموجود على الحدود بين المقاطعتين الفرنسيتين شامباين ولورين. وأعاد فولتير تجديد المبنى على نفقته الخاصة، ومن هناك بدأ علاقته بالماركيزة دو شاتولييه، والمعروفة باسم جابرييل اميلي لو تونيلييه دي بريتويل (والتي أطلقت على نفسها اسم اميلي دو شاتولييه). وكان قصر سيراي ملكًا لزوج الماركيزة – الماركيز فلورنت-كلود دو شاتولييه – الذي كان أحيانًا يزور زوجته وعشيقها في القصر الريفي. وكان لهذه العلاقة التي استمرت لمدة خمسة عشر عامًا تأثيرها الفكري المهم على حياة فولتير. فقد جمع فولتير بمساعدة الماركيزة واحد وعشرين ألفًا من الكتب؛ ويعتبر هذا العدد عددًا هائلاً من الكتب في ذلك الوقت. وقد قاما معًا بدراسة هذه الكتب، وكذلك بالقيام بتجارب خاصة بالعلوم المعروفة باسم العلوم الطبيعية في المعمل الخاص بفولتير. وتضمنت تجارب فولتير محاولة منه لتحديد خصائص النار.

وبعد أن تعلم فولتير الدرس من مناوشاته السابقة مع السلطات، بدأ فولتير الأسلوب الذي استمر في استخدامه لبقية حياته بالابتعاد عن كل ما يسبب له الأذى الشخصي والتخلص من أية مسؤولية قد تعرضه للخطر. وواصل فولتير كتاباته، وقام بنشر بعضًا من مسرحياته مثل Mérope بالإضافة إلى بعض القصص القصيرة. ومرةً أخرى، يمكن اعتبار السنوات التي قضاها فولتير في منفاه في بريطانيا مصدرًا للإلهام من خلال تأثره القوي بأعمال سير اسحق نيوتن. وكان فولتير يؤمن بقوة بنظريات نيوتن؛ خاصةً تلك النظريات التي تتعلق بعلم البصريات (فقد أدى اكتشاف نيوتن لحقيقة أن الضوء الأبيض يتكون من كل ألوان الطيف إلى قيام فولتير بالعديد من التجارب المتعلقة بهذا الاكتشاف في سيراي). كذلك، أتى فولتير على ذكر قانون الجاذبية في أعماله (فقد ذكر قصة نيوتن مع التفاحة التي سقطت فوقه من شجرة في عمله المعروف باسم Essai sur la poésie épique أو Essay on Epic Poetry.

وبالرغم من أن فولتير والماركيزة كانا شغوفين بالآراء الفلسفية الخاصة بعالم الرياضيات والفيلسوف الألماني جوتفريد لايبنز – الذي كان معاصرًا لنيوتن وخصمًا له – قد احتفظ الاثنان «بإيمانهما بأفكار نيوتن» وشكلت أعمال نيوتن وأفكاره ركيزة مهمة في نظرياتهما. وبالرغم من أن بعض الآراء كانت تعتقد أن الماركيزة «تميل إلى آراء لايبنز»، فقد كتبت هي: «je newtonise» وهي العبارة التي تعني «أنا أعمل وفق أفكار نيوتن» أو «أنا أؤمن بأفكار نيوتن». وربما يكون كتاب فولتير Eléments de la philosophie de Newton أو The Elements) (of Newton>s Philosophies عملاً مشتركًا بينه وبين الماركيزة، وكان الهدف منه وصف الفروع الأخرى من أفكار نيوتن التي انبهرا بها بما في ذلك نظرية الجاذبية.

كذلك، قام فولتير والماركيزة بدراسة التاريخ؛ خاصة تاريخ الشعوب التي أسهمت في بناء الحضارة حتى الوقت الذي كانا يعيشان فيه. وكان المقال الثاني الذي كتبه فولتير باللغة الانجليزية هو Essay upon the Civil Wars in France. وعندما عاد إلى فرنسا، كتب فولتير مقالاً يعرض السيرة الذاتية للملك تشارلز الثاني عشر؛ وهو المقال الذي يعتبر بداية لكتابات فولتير التي انتقد فيها الأديان (الدين)المعروفة (المعروف). وقد جعله هذا المقال مؤرخًا للبلاط الملكي. كذلك، عمل فولتير مع الماركيزة على دراسة الفلسفة؛ خاصةً الفلسفة الميتافيزيقية – ذلك الفرع من الفلسفة الذي كان يتعامل مع الأمور بعيدة المنال والتي لا يمكن إثباتها بطريقة مباشرة: كيفية الحياة وماهيتها، ووجود الله أو عدم وجوده، وما يشابه ذلك من موضوعات. وقام فولتير والماركيزة بتحليل الكتاب المقدس في محاولة لاكتشاف مدى صحة أفكاره في العصر الذي كانا يعيشان فيه. وانعكست آراء فولتير النقدية في إيمانه بوجوب فصل الكنيسة عن الدولة وكذلك بحرية العقيدة؛ وهي الأفكار التي كوّنها بعد الفترة التي قضاها في انجترا.

القصر الصيفي Sanssouci

Die Tafelrunde التي قام بكتابتها أدولف فون مينتسلضيوف الملك فريدريك الأكبر – ملك بروسيا – في قاعة Marble Hall في القصر الريفي Sanssouci (ومن بين الحضور أعضاء الأكاديمية البروسية للعلوم وفولتير الذي يظهر في اللوحة جالسًا في المقعد الثالث من اليسار). وبعد وفاة الماركيزة – أثناء الولادة – في ايلول من عام ١٧٤٩، عاد فولتير لفترة قصيرة إلى باريس. وفي عام ١٧٥١، انتقل إلى مدينة بوتسدام ليعيش إلى جوار فريدريك الأكبر – ملك بروسيا – الذي كان صديقًا مقربًا منه ومعجبًا بأدبه. وقد قام الملك بدعوته بشكل متكرر إلى قصره، ثم منحه مرتبًا سنويًا يبلغ عشرين ألف فرانك. وبالرغم من أن أمور حياة فولتير كانت تسير على ما يرام في البداية – ففي عام ١٧٥٢ كتب فولتير قصته القصيرة المعروفة باسم Micromégas ؛ والتي ربما تكون أول عمل من أعمال الخيال العلمي يصوّر سفراء من كوكب آخر يتعرفون على حماقات الجنس البشري – فقد بدأت علاقته بفريديريك الأكبر في التدهور وواجهتها بعض الصعوبات. فقد وجد فولتير نفسه أمام دعوة قضائية تم رفعها ضده وأمام نزاع مع الأديب والفيلسوف وعالم الرياضيات الفرنسي موبرتوي – الذي كان يشغل منصب رئيس أكاديمية برلين للعلوم – فكتب مقالته الهجائية Diatribe du docteur Akakia (Diatribe of Doctor Akakia) التي سخر فيها من موبرتوي. ولقد أدى هذا الأمر إلى غضب الملك فريديك الذي أمر بإحراق كل نسخ العمل وإلقاء القبض على فولتير أثناء وجوده في نزل كان يقيم فيه في طريق عودته إلى وطنه.

جينيف وفيورني

وتوجه فولتير صوب باريس، ولكن لويس الخامس عشر منعه من دخول المدينة. لذلك، قصد جينيف بدلاً منها واشترى بالقرب منها ضيعة كبيرة هي Les Délices. وبالرغم من أن المدينة قد استقبلته في بادئ الأمر بالحرية، فقد دفعه القانون المطبق في جينيف على غير رغبته – ذلك القانون الذي كان يحظر الأداء المسرحي وكذلك النشر لقصيدة فولتير الهجائية المعروفة باسم The Maid of Orleans – إلى الانتقال في نهاية عام ١٧٥٨ إلى خارج جينيف وعبور الحدود الفرنسية حتى وصل إلى فيورني التي اشترى فيها ضيعة أكبر. وألهمته هذه الظروف كتابة روايته القصيرة Candide,ou l>Optimisme (Candide، أو التفاؤل). ويبقى هذا العمل الهجائي الذي انتقد فيه فولتير فلسفة لايبنز التي تؤمن بالحتمية المتفائلة أكثر الأعمال التي اشتهر بها. وهكذا، استقر فولتير في فيورني معظم السنوات العشرين المتبقية في حياته ليستضيف بين الحين والآخر ضيوفًا بارزين من أمثال: جيمس بوزويل وجيوفاني كازانوفا وإدوارد جيبون. وفي عام ١٧٦٤، نشر فولتير أكثر أعماله الفلسفية أهمية التي ينتقد فيه الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وغيرها من المؤسسات وهو Dictionnaire Philosophique ؛ ذلك العمل الذي تضمن سلسلة من المقالات التي تمت كتابة معظمها أصلاً من أجل وضعها في الموسوعة العامة الفرنسية التي تم نشرها في ذلك الوقت والمعروفة باسم Encyclopédie.[٣]

القصر الريفي الذي كان فولتير يملكه في مقاطعة فيورني بفرنسا. وبدءًا من عام ١٧٦٢، بدأ فولتير دفاعه عمن يتعرضون للاضطهاد دون وجه حق، وربما تكون قضية جان كالاس أكثر القضايا التي تبناها شهرة. فقد تعرض هذا التاجر الذي ينتمي لكنيسة الإصلاح الفرنسية البروتستانتية إلى التعذيب حتى الموت في عام ١٧٦٣ حيث تم اتهامه بقتل ابنه عندما أراد أن يتحول إلى المذهب الكاثوليكي. وتمت مصادرة أملاكه ونزع حضانة من تبقى من أبنائه من أرملته وإجبارهم على الدخول إلى أحد الأديرة. ونجح فولتير – الذي كان يرى في هذه القضية دليلاً واضحًا على الاضطهاد الديني – في إسقاط هذه التهمة عن كالاس في عام ١٧٦٥

موت فولتير ودفنه

وفي شباط من عام ١٧٧٨، عاد فولتير

للمرة الأولى خلال العشرين عامًا الأخيرة إلى باريس – مع آخرين – ليشهد افتتاح آخر أعماله التراجيدية وهي مسرحية Irene. وكان السفر الذي استغرق خمسة أيام شاقًا للغاية على العجوز الذي كان يناهز الثالثة والثمانين من عمره. واعتقد فولتير إنه على شفا الموت في الثامن والعشرين من فبراير، فكتب: «أنا الآن على شفا الموت وأنا أعبد الله، وأحب أصدقائي، ولا أكره أعدائي، وأمقت الخرافات.» وبالرغم من ذلك، فقد تماثل للشفاء وشهد في شهر مارس عرضًا لمسرحيته Irene تم استقباله خلاله استقبال البطل الذي عاد أخيرًا إلى وطنه. ولكن، سرعان ما مرض فولتير ثانيةً وتوفي في الثلاثين من اذار في عام ١٧٧٨. وفي لحظات احتضاره على فراش الموت، عندما طلب منه القسيس أن يتبرأ من الشيطان ويعود إلى إيمانه بالله، يقال أن إجابته كانت: «لا وقت لدي الآن لأكتسب المزيد من العداوات.» ويقال أيضًا إن كلماته الأخيرة كانت: «كرمى لله، دعني أرقد في سلام.»

وبسبب انتقاده المعروف للكنيسة الذي رفض أن يتراجع عنه قبل وفاته، لم يتم السماح بدفن فولتير وفقًا للشعائر الكاثوليكية. وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكن اصدقاؤه من دفن جثمانه سرًا في إحدى الكنائس الكبيرة في مقاطعة شامباين المعروفة باسم Scellières قبل أن يتم الإعلان رسميًا عن قرار منع الدفن. وقد تم تحنيط قلبه ومخه بشكل منفصل. وفي يوليو من عام ١٧٩١، اعتبرته الجمعية الوطنية الفرنسية (the National Assembly) واحدًا ممن بشروا باندلاع الثورة الفرنسية، وتمت استعادة رفاته للاحتفاظ بها في البانثيون – مقبرة عظماء الأمة – تكريمًا له. وتم الاحتفال بنقل رفات فولتير احتفالاً ضخمًا بوجود اوركسترا كاملة، وتضمنت المقطوعات الموسيقية التي تم عزفها مقطوعة للمؤلف الموسيقي أندريه جريتري – البلجيكي الأصل والذي حصل على الجنسية الفرنسية بعد ذلك – تم تأليفها خصيصًا احتفالاً بهذه المناسبة؛ تلك المقطوعة التي تم تخصيص جزء منها لآلة النفخ المعروفة باسم «tuba curva».

ويعود أصل هذه الآلة إلى العصر الروماني حيث كانت تعرف باسم cornu، وكانت هذه الآلة قد تمت إعادة استخدامها في ذلك الوقت تحت هذا الاسم الجديد.

قبر فولتير في البانثيون في باريس.

وهناك إحدى القصص غير الحقيقية التي تتردد باستمرار عن أن ما تبقى من رفات فولتير قد تعرض للسرقة من قبل أحد المتعصبين الدينيين في عام ١٨١٤ أو عام ١٨٢١ أثناء عملية الترميم التي تمت لمقبرة البانثيون وإلقائه في كومة من أكوام القمامة.

الشعر

في سنوات عمره المبكرة، ظهرت موهبة فولتير الشعرية وكانت أول أعماله المنشورة من الشعر. وكتب فولتير قصيدتين طويلتين؛ وهما Henriade و The Maid of Orleans بالإضافة إلى العديد من المقطوعات الشعرية الأخرى الأصغر حجمًا.

وكانت قصيدة The Henriade مكتوبة بشكل يحاكي أعمال فيرجيل مستخدمًا في كل مقطع يتكون من بيتين ذلك النمط من الأوزان الشعرية المعروف باسم Alexandrine والذي أدخل عليه بعض التعديلات التي جعلته مملاً ولك من أجل أن يناسب الصياغة الدرامية للعمل. وافتقرت القصيدة التي كتبها فولتير إلى الحماس للموضوع وفهمه؛ وهما الأمران اللذان أثرا سلبًا على جودة القصيدة. أما القصيدة المعروفة باسم La Pucelle فهي – على الجانب الآخر – عمل محاكاة ساخر هاجم فيه فولتير بعض المفاهيم الدينية والتاريخية. وتعتبر أعمال فولتير الأخرى – ثانوية الأهمية – بوجه عام أفضل من هذين العملين من الناحية الفنية.

النثر

فولتير في قصر فريدريك الأكبر المعروف باسم Sanssouci.صورة محفورة لفولتير من إبداع بيير تشارلز باكوي.

تنتمي الكثير من أعمال فولتير التي صاغها على هيئة النثر والقصص النثرية الخيالية – والتي جاءت عادةً على هيئة كتيبات – إلى فن الجدل والمناظرة. فقد كانت قصته المعروفة باسم Candide تهاجم التفاؤل الديني والفلسفي بينما كان عمله المعروف باسم L>Homme aux quarante ecus يهاجم بعض الأساليب الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في ذلك العصر. أما رواية فولتير المعروفة باسم Zadig وغيرها من أعماله، فقد هاجم فيها الأفكار التي يتم تناقلها عبر الأجيال والخاصة بالقيم والمبادئ التي تقوم عليها العقيدة الأرثوذكسية بينما كان هدفه من كتابة بعض هذه الأعمال هو السخرية من الكتاب المقدس . وفي هذه الأعمال، يتضح أسلوب فولتير الساخر – البعيد عن المبالغة – ويتضح بوجه خاص التحفظ والبساطة في المعالجة اللفظية لهذه الأعمال. ويمكن اعتبار أن روايته القصيرة Candide بوجه خاص هي أفضل النماذج على أسلوبه الأدبي. ولفولتير الفضل – مثلما هو الحال مع جوناثان سويفت – في تمهيد الطريق في دنيا الأدب لاستخدام السخرية الفلسفية في أدب الخيال العلمي خاصةً في قصته القصيرة المعروفة باسم Micromégas .

وتشترك كتابات فولتير الأدبية مع أعماله الأخرى في استخدامها بوجه عام لأسلوب النقد بالإضافة إلى التنوع في الموضوعات التي يتناولها. فقد كان يسبق كل أعماله الأساسية – سواءً التي كتبها في قالب شعري أو نثري – تمهيد من نوع أو آخر يمكن اعتباره نموذجًا لنبرة السخرية اللاذعة التي تميز أعماله والتي لم تمنعه من استخدام تلك اللغة العادية المستخدمة في أحاديث الناس. وفي عدد كبير من الكتيبات والكتابات التي لا تتميز بخصائص معينة تفردها عن غيرها من الكتابات، تظهر مهارات فولتير في الكتابة الصحفية. وفي مجال النقد الأدبي الصرف، يمكن اعتبار أن عمله الرئيسي في هذا المجال هو Commentaire sur Corneille بالرغم من إنه قد قام بكتابة العديد من الأعمال الأخرى المشابهة له قالب:Ndash أحيانًا (كما هو الحال في عمله المعروف باسم Life and notices of Molière) بصورة مستقلة وأحيانًا أخرى كجزء من عمله المعروف باسم Siècles .

وتتكرر كلمة «l>infâme» وكذلك تعبير écrasez l>infâme أو «سحق العار الذي يلحق بالأشخاص». في أعمال فولتير؛ وخاصةً في خطاباته الخاصة. وتشير العبارة إلى تلك الإساءات التي تلحق بالناس من أفراد الأسرة المالكة ورجال الدين الذين كان فولتير يراهم في كل مكان من حوله، وكذلك إلى الخرافات وعدم التسامح الذين زرعهما رجال الدين في نفوس الناس. وقد شعر فولتير بهذه المؤثرات في العديد من الأحداث التي مرت في حياته مثل: المنفى، ومصادرة كتبه، والمعاناة البشعة التي مر بها كل منكالاس و لابري.

وأشهر التعليقات التي يتم تناقلها عن فولتير مشكوك في صحته. فالعبارة التالية قد نسبت بشكل خاطئ إلى فولتير «قد أختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد أن أموت دفاعًا عن رأيك.» ولم يكن فولتير هو من قال هذه الكلمات، ولكن قائلتها هي إيفلين بياتريس هول التي كانت تكتب تحت اسم مستعار وهو S. G. Tallentyre وذلك في عام ١٩٠٦ في كتاب السيرة الذاتية الذي قامت بإصداره تحت عنوان The Friends of Voltaire . وقد قصدت هول بعبارتها أن تلخص بكلماتها موقف فولتير تجاه كلود ادريان هلفتيوس وكتابه الذي أثار جدلاً كبيرًا وهو De l>esprit ولكن نسب هذا التعبير الذي صاغته بكلماتها بشكل خاطئ إلى فولتير. وعبر ما قالته عن مضمون موقف فولتير من هلفتيوس. ويقال أنها قد استوحت كلماتها من أحد التعليقات التي تم العثور عليها في عام ١٧٧٠ في أحد خطابات فولتير إلى Abbot le Roche والتي يروى إنه قد قال فيها: «أنا أمقت ما تكتب، ولكنني على استعداد تام لأن أضحي بحياتي من أجل أن تستمر في الكتابة.» وبالرغم من ذلك، فإن الدارسين يعتقدون في وجود نوع من أنواع سوء الفهم لأن لا يبدو أن مثل هذا الخطاب يحتوي على أي تعليق من هذا النوع.

ويعتبر أكبر الأعمال الفلسفية التي أنتجها فولتير هو Dictionnaire philosophique الذي يحتوي على مقالات قدمها فولتير للنشر في Encyclopédie وكذلك العديد من أعماله الأخرى ثانوية الأهمية. وقد تم تخصيصها لانتقاد المعاهد السياسية الفرنسية، وأعداء فولتير الشخصيين، والكتاب المقدس، والكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

ومن بين العديد من الأهداف الأخرى، انتقد فولتير السياسة الاستعمارية الفرنسية

في أمريكا الشمالية، وعمل على الحط من قدر المنطقة الشاسعة المعروفة باسم ولاية فرنسا الجديدة بوصفها بإنها مساحة ضئيلة تكسوها الثلوج أو («quelques arpents de neige») .

رسائل فولتير

كذلك، كتب فولتير عددًا هائلاً من المراسلات الخاصة في الفترة التي عاشها تبلغ إجمالاً أكثر من عشرين ألفًا من الرسائل. وتظهر شخصية فولتير في الخطابات التي كتبها: ففيها تظهر الحيوية التي يتمتع بها وتعدد الجوانب والبراعات في شخصيته وقدرته على التملق التي لا يتردد في استخدامها وسخريته قاسية القلب ومقدرته المهنية المجردة من المبادئ الخلقية وتصميمه على الخداع والتحريف في أي اتجاه يرى فيه مصلحته أو يستطيع به الهروب من أعدائه.

فلسفة فولتير

فولتير في سن السبعين في لوحة باستخدام فن الحفر موجودة في النسخة التي صدرت في عام ١٨٤٣ من كتابه Philosophical Dictionary. الدين
بالرغم من الاعتقاد الخاطئ للبعض في أن فولتير كان ملحدًا، فقد كان في حقيقة الأمر يشترك في الأنشطة الدينية كما قام ببناء كنيسة صغيرة في ضيعته التي اشتراها في فيورني. ويكمن السبب الرئيسي في هذا الاعتقاد الخاطئ في أحد الأبيات التي وردت في قصيدة له (وكانت القصيدة بعنوان «Epistle to the author of the book، The Three Impostors») (رسالة إلى مؤلف الكتاب: المدّعين الثلاثة). ويمكن ترجمة البيت إلى: «إذا كان الله غير موجود، فسيكون من الضروري أن نختلق نحن واحدًا.» وتظهر القصيدة الكاملة التي ينتمي إليها هذا البيت انتقاده الذي كان ينصب بدرجة أكبر على تصرفات المؤسسات الدينية أكثر منه على مفهوم الدين في حد ذاته.

وكحال الكثيرين من الشخصيات البارزة التي عاشت أثناء عصر التنوير الأوروبي، اعتبر فولتير نفسه مؤمنًا بمذهب الربوبية. فقد كان لا يعتقد في أن الإيمان المطلق بالله يحتاج إلى الاستناد على أي نص ديني محدد أو فردي أو على أي تعاليم تأتي عن طريق الوحي. وفي حقيقة الأمر، كان كل تركيز فولتير ينصب على فكرة أن الكون قائم على العقل واحترام الطبيعة؛ وهي الفكرة التي عكست الرأي المعاصر له والذي كان يعتقد في وحدة الوجود. وقد نالت هذه الفكرة حظًا وافرًا من الرواج بين الناس خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وكتب لها الاستمرار في الوجود في شكل من أشكال الربوبية المعروفة في عصرنا الحالي باسم «Voltairean Pantheism» «وحدة الوجود من منظور فولتير.»

وكتب فولتير متسائلاً: «ما الإيمان؟» فهل هو أن نؤمن بما نستطيع أن نراه واضحًا أمام أعيننا؟ لا، فمن الواضح تمامًا لعقلي إنه من الضروري وجود كيان خالد رفيع المنزلة عاقل ذكي. فالأمر عندي لا علاقة له بالإيمان، ولكنه مرتبط بالعقل.»

وفيما يتعلق بالنصوص الدينية، قام أحد مؤلفي القرن الواحد والعشرين بتلخيص رأي فولتير في الكتاب المقدس[من؟] عندما قال إنه أولاً مرجع قانوني و/أو أخلاقي عفا عليه الزمن. وثانيًا، هو بوجه عام نوع من أنواع الاستعارة اللغوية، ولكنها استعارة تحمل في طياتها القدرة على أن تعلمنا دروسًا مفيدة. وثالثًا، هو عمل من صنع الإنسان، وليس هبة إلهية. ولم تستطع هذه المعتقدات أن تمنع فولتير من ممارسة الطقوس الدينية بالرغم من إنها قد أكسبته سوء السمعة في أوساط المنتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية.

وجدير بالذكر أن فولتير كان يشكل – بحق – مصدرًا للإزعاج للعديد من المؤمنين، وأن أفكاره كانت معروفة للجميع وفي كل البلاد. فقد كتب فولف جانج أماديوس موتسارت إلى والده خطابًا في السنة التي توفي فيها فولتير قال فيه: «أخيرًا رحل عن العالم أكبر الأوغاد ومن تلك الأعمال التي قام فولتير بترجمتها والتي تظهر فيها أفكار الكونفشيوسية وتلك المبادئ التي تنادي بالتقيد الحرفي أو المفرط بالقانون أو بشرع ديني أو أخلاقي، استقى معلوماته عن المفاهيم الصينية في مجالي السياسة والفلسفة (والتي قامت على مبادئ عقلية)، وقد قام فولتير بذلك بغرض المقارنة بعين ناقدة بينها وبين المؤسسات الدينية الأوروبية وكذلك النظام الارستقراطي الموروث.

وهناك قصة لم يتم التأكد من صحتها تتعلق بشراء Geneva Bible Society لمنزل فولتير الذي يقع في فيورني لاستخدامه في طباعة الكتاب المقدس. ولكن، يبدو أن مصدر هذه القصة هو ذلك التقرير السنوي – الذي تمت إساءة فهمه – الصادر في عام ١٨٤٩ عن American Bible Society (وهي مجموعة تأسست عام ١٨١٦ بهدف نشر وتوزيع وترجمة الكتاب المقدس). وتملك وزارة الثقافة الفرنسية الآن قصر فولتير وتتولى إدارته.

الماسونية

دخل فولتير في عضوية المنظمة الماسونية قبل وفاته بشهر واحد. ففي الرابع من نيسان من عام ١٧٧٨، ذهب فولتير برفقة بنيامين فرانكلين إلى المحفل الماسوني الشهير La Loge des Neuf Soeurs في باريس بفرنسا وأصبح Entered ApprenticeFreemason (مبتدئ منضم إلى الماسونية). وربما يكون قد أقدم على هذه الخطوة لإرضاء فرانكلين فقط

الميراث الذي خلفه فولتير

تمثال نصفي لفولتير من إبداع النحات الفرنسي – جان انطوان هودون – الذي ينتمي إلى المدرسة الكلاسيكية الحديثة. كان فولتير يرى أن البرجوازيين الفرنسيين قليلو العدد ولا تأثير لهم في الحياة الفرنسية. أما الطبقة الأرستقراطية فقد كان يعتقد أنها طبقة طفيلية فاسدة. وكان فولتير يرى أن عامة الشعب يتميزون بالجهل ويؤمنون بالخرافات بينما اعتبر الكنيسة عبارة عن قوة راكدة تفيد فقط في موازنة القوى الأخرى حيث أن «الضريبة الدينية» أو ضريبة العشر قد ساعدت في دعم الثوريين. وكان فولتير لا يثق في الديمقراطية لأنه رأى إنها تعمل على الترويج لحماقات العامة والدهماء. وبالنسبة لفولتير، يكون الملك المستنير أو الشخص المستنير المنفرد بالحكم – والذي يسمع لنصح الفلاسفة (الفيلسوف) من أمثال فولتير – هو الوحيد القادر على أن يغير في مجريات الأمور لأنه من المصلحة المنطقية للملك أن يقوم بدفع القوة والثروة التي يتمتع بهما رعاياه وأبناء مملكته إلى الاتجاه الأفضل. وبصورة أساسية، كان فولتير يعتقد أن الاستبداد المستنير هو مفتاح التقدم والتغيير.

وتعتبر أكثر الأعمال الباقية في ذاكرة التاريخ لفولتير هي روايته القصيرة Candide ou l>Optimisme [Candide، or Optimismالتي كتبها في عام ١٧٥٩] بهدف الانتقاد الساخر لفلسفة التفاؤل. وقد كانت الرواية موضع اعتراض الرقابة على المطبوعات، فأدّعى فولتير مازحًا أن المؤلف الحقيقي للقصة هو Captain Demad – أخ مزعوم لفولتير – في خطاب قام بإرساله إلى Journal encyclopedique أعاد فيه التأكيد على المواقف العقلية الجدلية التي وردت في النص الذي كتبه.

واشتهر فولتير بالعديد من الأقوال المأثورة البارزة مثل: «Si Dieu n>existait pas، il faudrait l>inventer» («إذا كان الله غير موجود، فسيكون من الضروري أن نختلق نحن واحدًا») وهي الجملة التي وردت في رسالة شعرية في عام ١٧٦٨ – ووجهها فولتير إلى المؤلف المجهول لذلك العمل الذي أثار قدرًا هائلاً من الجدل وهو The Three Impostors .

وقد قامت فرنسا بتخليد ذكرى فولتير وتكريمه كواحد من الرواد الشجعان لفن الجدل والمناظرة قام بالدفاع المستمر عن الحقوق المدنية قالب:Ndash والحق في الحصول على محاكمة عادلة وحرية العقيدة.

كذلك، قالب:Ndash استنكر فولتير بشدة النفاق والظلم الذين كان يتصف بهما الحكم الأرستقراطي . وكان الحكم الأرستقراطي يفرض ميزانا غير عادل فيما يتعلق بالقوى وبالضرائب بين السلطة (الطبقة الاجتماعية) الأولى المتمثلة في رجال الدين، والسلطة الثانية المتمثلة في طبقة النبلاء، والسلطة الثالثة المتمثلة في العامة وأفراد الطبقة الوسطى؛ والذين كانوا يرزحون تحت وطأة معظم الضرائب التي يتم فرضها.

ولقد قام البعض من زملاء فولتير اللاحقين بالحط من قدره. فقد كان الكاتب الاسكتلندي الفيكتوري – توماس كارلايل – يعتقد أنه بالرغم من عدم وجود من يستطيع أن يباري فولتير في موهبته في الصياغة الأدبية، فإن أكثر أعماله إتقانا لم تكن ذات قيمة من ناحية المضمون وإنه لم يستطع أبدًا أن يبدع فكرة خاصة به تنبع من داخله.

وبينما كان فولتير يأتي على ذكر الصين ومملكة سيام كنماذج للحضارات الذكية غير الأوروبية وينتقد بقسوة العبودية كان يؤمن أن اليهود «شعب جاهل وهمجي.»

وقد تم إطلاق اسم فيورني-فولتير على بلدة فيورني التي قضى فيها فولتير العشرين عامًا الأخيرة من حياته تخليدًا لذكرى أشهر من عاش فيها. أماقصره الريفي فقد تحول الآن إلى متحف.

وتم الحفاظ على المكتبة الخاصة بالأديب فولتير سليمة تمامًا في المكتبة الوطنية الروسية الموجودة في مدينة سان بطرسبرج في روسيا.

وفي عام ١٩١٦، وفي مدينة زيورخ قامت جماعة المسرح والأداء المسرحي – والتي شكلت فيما بعد بدايات الحركة الطليعية المعروفة باسم دادا (الدادانية) (حركة ثقافية انطلقت من زيورخ أثناء الحرب العالمية الأولى من أجل معاداة الحرب) – بإطلاق اسم Cabaret Voltaire على المسرح الذين يقدمون عروضهم فوق خشبته. وفي السنوات الأخيرة من القرن العشرين، قامت إحدى الفرق الموسيقية بإطلاق اسم ذلك المسرح على فرقتهم.

وتلعب شخصية فولتير دورًا مهمًا في سلسلة مكونة من أربع روايات متعاقبة تاريخيًا بعنوان The Age of Unreason كتبها مؤلف قصص الخيال العلمي والفانتازيا الأمريكي Gregory Keyes

الأعمال الرئيسة

مجموعة من المقالات التي صاغها فولتير على هيئة خطابات وهي Lettres philosophiques sur les Anglais وقد تم نشرها في عام ١٧٣٣، وتم تعديلها تحت اسم Letters on the English (حوالي عام ١٧٧٨)

العمل الشعري Le Mondain (الذي كتبه في عام ١٧٣٦)

العمل الشعري Sept Discours en Vers sur lHomme (وكتبه فولتير في عام ١٧٣٨)

رواية Zadig (وقد قام فولتير بكتابتها في عام ١٧٤٧)

القصة القصيرة Micromégas (والتي كتبها فولتير في عام ١٧٥٢)

الرواية القصيرة Candide (التي قام فولتير بكتابتها في عام ١٧٥٩)

حكاية فلسفية بعنوانCe qui plaît aux dames (قام فولتير بكتابتها في عام ١٧٦٤)

مجموعة المقالات التي تحمل عنوان Dictionnaire philosophique (والتي قام فولتير بكتابتها في عام ١٧٦٤)

حكاية قصيرة هجائية بعنوان LIngénu (وقد قام فولتير بكتابتها في عام ١٧٦٧)

الحكاية الفلسفية La Princesse de Babylone (التي قام فولتير بتأليفها في عام ١٧٦٨)

رسالة منظومة شعرًا بعنوان Épître à lAuteur du Livre des Trois Imposteurs (والتي قام فولتير بتأليفها في عام ١٧٧٠)

المسرحيات

كتب فولتير عددًا من المسرحيات يتراوح ما بين خمسين وستين مسرحية، اشتملت على عدد من المسرحيات التي لم ينه كتابتها. ومن بين هذه المسرحيات:

Œdipe (التي قام بتأليفها في عام ١٧١٨)
Zaïre(التي قام بتأليفها في عام ١٧٣٢)
Eriphile(التي قام بتأليفها في عام ١٧٣٢)
Irène
Socrates
Mahomet
Mérope
Nanine
The Orphan of China (وقدمها فولتير في عام ١٧٥٥)

الأعمال التاريخية

كتاب History of Charles XII، King of Sweden (والتي قام فولتير بكتابته في عام ١٧٣١)

كتاب The Age of Louis XIV (الذي قام فولتير بتأليفه في عام ١٧٥١)

كتاب The Age of Louis XV (الذي قام فولتير بتأليفه في الفترة ما بين عامي ١٧٦٤ و١٧٥٢)

كتاب - Annals of the Empire Henry VII - ٧٤٢ .Charlemagne، A.D ١٣١٣ الجزء الأول الذي قام بتأليفه في عام ١٧٥٤)

كتاب Annals of the Empire - Louis of Bavaria، ١٣١٥ to Ferdinand II ١٦٣١ الجزء الثاني (وقد قام فولتير بتأليفه في عام ١٧٥٤)

كتاب History of the Russian Empire Under Peter the Great وقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب في عام ١٧٥٩ بينما صدر الجزء الثاني منه في عام ١٧٦٣)

Volt

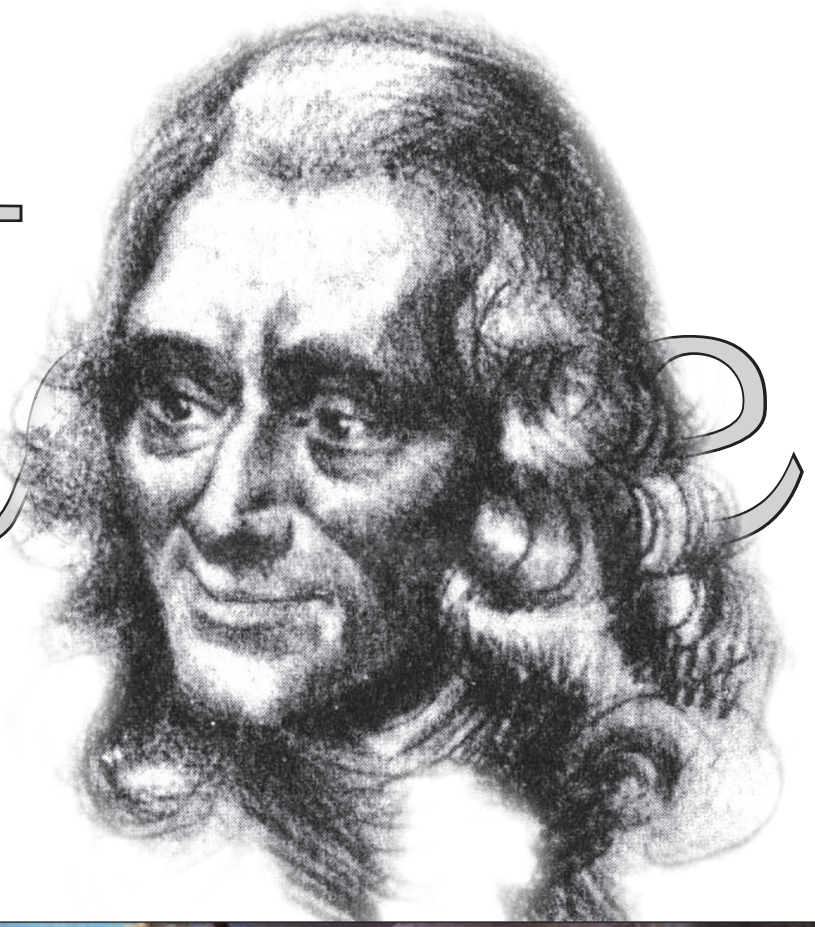

زعيم الأنوار الأوروبية

هاشم صالح

تجاوز فولتير النطاق الفرنسي من حيث الحجم والشهرة، ووصلت أصداؤه إلى مختلف أرجاء القارة الأوروبية: من انجلترا إلى ألمانيا إلى هولندا إلى روسيا، بل وبلغ به الأمر إلى حد مراسلة الملوك ومجالستهم والتعامل

زعيم الأنوار الأوروبية معهم معاملة الند للند. فقد كان صديقاً حميماً لفريديريك الثاني، ملك بروسيا، أي ألمانيا في ذلك الزمان. وهو الملقب بفريديريك الكبير أو بالمستبد المستنير لأنه شجع الفلسفة والعلوم في عصره، على عكس المستبدين الظلاميين كلويس الخامس عشر، الذين لم يشجعوا الا التراث التقليدي ورجال الدين. وقد عاش في كنف فريديريك هذا أكثر من ثلاث سنوات معززاً مكرماً تارة، ومراقباً مشبوهاً تارة أخرى. وذاق طعم العلاقة «الحلوة – المرة» التي يتعاطاها المثقفون عادة مع السلطة حتى ولو كانت سلطة مستنيرة.

فملك بروسيا كان يريد أن يستخدمه لصالحه، لبثّ دعايته في الأقاليم، لتدجينه بشكل ما. وهو كان يريد أن يستخدم هامش الحرية الذي أمّنه له فريديريك الكبير من أجل تطوير فلسفته وتعميق أفكاره ونشر فكر التنوير في كل مكان. وإذا كان فريديريك ملك السياسة والجيوش الجرارة في وقته، فإن فولتير كان يعتبر نفسه ملك الفكر. وما كان من السهل أن يتعايش ملكان اثنان في نفس الحيز الضيق من الأرض.. نقول ذلك على الرغم من الإعجاب المتبادل الذي كان سائداً بينهما، خصوصاً في المراحل الأولى. وهو إعجاب لم ينته حتى بعد أن اختلفا وتفرقا.

كما دعته كاترين الثانية، ملكة روسيا، إلى زيارتها أيضاً، ولكن العمر كان قد تقدم به كثيراً ولم يعد قادراً على تحمل مشاق سفرة طويلة كهذه. وحده ملك فرنسا الغبي لويس الخامس عشر رفض أن يستقبله في بلاطه أو يتعامل معه. بل ورفض أن يسمح له بزيارة بلاده ومسقط رأسه: باريس. وهكذا ظل منفياً لمدة ثلاثين سنة: وانطبقت عليه تلك العبارة الشهيرة: لا نبيَّ في قومه.

ويمكن القول بأن فولتير الكاثوليكي الأصل عاش معظم حياته في البلدان البروتستانتية (انجلترا، بروسيا، جنيف)، لأنه كان يجد فيها متنفساً وهامشاً من الحرية على عكس البلدان الكاثوليكية المتزمتة كفرنسا وإسبانيا وإيطاليا. وفي القسم الأخير من حياته راح يعيش على الحدود، أي رجلاً في فرنسا ورجلاً في سويسرا، لكي يهرب بأقصى سرعة ممكنة، إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.

ينبغي العلم بأن مثقفي أوروبا في ذلك الزمان كانوا مهددين في كل لحظة بحياتهم ورزقهم أو مراقبة كتبهم ومخطوطاتهم تماما كالمثقفين العرب حاليا. وكانوا يعيشون منفيين أو هاربين معظم الوقت. وكان سيف الرقابة الدينية أو السياسية مسلّطاً عليهم وعلى ما يكتبونه باستمرار. ولذلك فكانوا ينشرون مؤلفاتهم في أمستردام بهولندا أو في انجلترا ثم يدخلونها سرياً، أي تحت المعطف، إلى فرنسا. وفي أحيان كثيرة كانت تصدر بأسماء مستعارة أو من دون اسم خوفاً من سيف الرقابة والملاحقة. كانوا يخوضون حرباً تكتيكية، أو حرب مواقع، مع السلطة وممثليها، ثم مع الكنيسة المسيحية بشكل خاص. ومن رحم هذه الحروب السرية– العلنية خرجت الحريات الحديثة. وبالتالي فلا ينبغي أن تخدعنا الصورة الزاهية للحريات الواسعة والمنتشرة الآن في كل أنحاء أوروبا. فهي لم تهبط عليهم كهدية من السماء. وإنما انتزعوها شبراً شبراً، وفتراً فتراً، وبعد نضال طويل ومرير.

ما هي المعركة الأساسية لفولتير؟ ما الرسالة التي كرس نفسه لها طيلة حياته كلها؟ (فهو لم يتزوج ولم ينجب الأطفال). إنها تتلخص بكلمة واحدة: محاربة الوحش الضاري، بحسب تعبيره الحرفي: أي التعصب والاكراه في الدين. انها تتمثل في محاربة الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين الذين كانوا يسيطرون على عقول الشعب الفقير والجاهل وينشرون أفكار التعصب في كل مكان. ثم تتمثل ايضا في محاربة الاستبداد السياسي المرتبط بكل ذلك، من دون أن يعني هذا أن فولتير كان ضد النظام الملكي، أو ضد الإيمان في المطلق. فعلى عكس الأسطورة الشائعة فإن فولتير لم يكن ملحداً ولا مادياً صرفاً على طريقة بعض فلاسفة التنوير الآخرين من أمثال دولامتري، أو البارون دولباخ، أو هيلفيتيوس، أو حتى ديدرو. وإنما كان مؤمناً، لكنه إيمان الفلاسفة، لا إيمان الكهنة أو عامة الشعب. بمعنى أنه كان يؤمن بوجود الله أو الكائن الأعلى أو المهندس الأكبر للكون وينفي ما عدا ذلك من عقائد وطقوس مسيحية (كالإيمان بالمعجزات، أو بالخرافات، أو حتى بالصفة الإلهية للمسيح. فالمسيح بالنسبة له شخص بشري. صحيح أنه أعظم شخص

ينبغي العلم بأن مثقفي أوروبا في ذلك الزمان كانوا مهددين في كل لحظة بحياتهم ورزقهم أو مراقبة كتبهم ومخطوطاتهم تماما كالمثقفين العرب حاليا. وكانوا يعيشون منفيين أو هاربين معظم الوقت. وكان سيف الرقابة الدينية أو السياسية مسلّطا عليهم وعلى ما يكتبونه باستمرار. ولذلك فكانوا ينشرون مؤلفاتهم في أمستردام بهولندا أو في انجلترا ثم يدخلونها سرياً، أي تحت المعطف، إلى فرنسا. وفي أحيان كثيرة كانت تصدر بأسماء مستعارة أو من دون اسم خوفاً من سيف الرقابة والملاحقة. كانوا يخوضون حرباً تكتيكية، أو حرب مواقع، مع السلطة وممثليها، ثم مع الكنيسة المسيحية بشكل خاص. ومن رحم هذه الحروب السرية-العلنية خرجت الحريات الحديثة. وبالتالي فلا ينبغي أن تخدعنا الصورة الزاهية للحريات الواسعة والمنتشرة الآن في كل أنحاء أوروبا. فهي لم تهبط عليهم كهدية من السماء. وإنما انتزعوها شبراً شبراً، وفتراً فتراً، وبعد نضال طويل ومرير.

بالنسبة للمسيحيين، لكنه انسان فقط). ولم يكن يعتقد بضرورة تأدية الشعائر والطقوس. وإنما كان يعتبر ذلك خاصاً بالعامة فقط، وليس بالنخبة المستنيرة. فهي ليست بحاجة اليها لكي تكون أخلاقية في سلوكها. وكبقية فلاسفة التنوير كان يرى أنه ينبغي تنوير العامة شيئاً فشيئاً حتى تخرج من ظلمات الجهل والتعصب الديني وسيطرة الكاهن المسيحي، وتدخل في مرحلة التحضّر والعقلانية والتقدم.

وقد فعل فولتير كل شيء لكي ينتزع السلطة السياسية (أو الزمنية) من براثن الكنيسة الكاثوليكية، ولكي يخفّف من حدة هيمنتها على الأرواح والعقول. وقد صدّق المستقبل نبوءته وتوجهه الأساسي فيما يخص هذه النقطة.

فالواقع أن القرن التاسع عشر كله أنجز مشروعه عندما فصل الكنيسة عن الدولة وحرّر السياسة من هيمنة القساوسة والمطارنة والكرادلة وبقية الأصوليين. وكان ذلك أحد الأسباب الأساسية لتقدم أوروبا وتفوقها على مختلف أنحاء العالم، وتحولها إلى منارة حضارية فعلاً. باختصار فإن فولتير كان يريد أن يحلّ حزب الفلاسفة محل حزب الكهنة والأصوليين في قصور السلطة وعلى رأس الإدارات والمؤسسات الرسمية للدولة. وفي ذات الوقت كان يريد أن يعيد الكهنة إلى كنائسهم لكي يشغلوا أنفسهم بأمور الدين والعبادة والآخرة فقط. فهنا تكمن مهمتهم الأساسية وليس في أي مكان آخر. وذلك لأنهم إذا ما انحرفوا عن مهمتهم الأساسية وشغلوا أنفسهم بأمور الدنيا ولوثوا الدين بالسياسة ومناوراتها ومساوماتها فسد كل شيء وخسرنا الدنيا والآخرة. وقد تحقق برنامجه بشكل حرفي تقريباً بعد مائة سنة من موته. ولذلك فإن كهنة فرنسا لا يزالون يحقدون عليه حتى هذه اللحظة ويكرهون ذكر اسمه. والدليل على ذلك هجوم كاردينال باريس السابق (لوستيجير) عليه في أحد كتبه الأخيرة. فقد اعتبره المسؤول الأساسي عن تراجع المسيحية في فرنسا وانصراف الناس عن الدين. (متى يكفّ لوستيجير عن تصفية حساباته مع عصر التنوير؟... متى يفهم أن عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء؟).

كان فولتير أمةً وحده. فقد شقّ التاريخ المسيحي والأوروبي إلى نصفين: ما قبله وما بعده. ويتفق مؤرخو الفكر على موضعه القطيعة الإبستمولوجية الكبرى في منتصف القرن الثامن عشر: أي في الوقت الذي ظهرت فيه مؤلفاته الأساسية بالإضافة إلى مؤلفات جان جاك روسو وديدرو وجماعة الموسوعيين. عندئذ حصل الانقلاب الحقيقي وانتقلت البشرية الأوروبية من عقلية القرون الوسطى الكهنوتية الإقطاعية، إلى عقلية العصور الحديثة العلمانية الديمقراطية. فقد كان الرأس المدبّر لحزب الفلاسفة أو لحزب التنوير. وكان يعتقد أن التنوير سوف يصعد رويداً رويداً حتى يشمل كل الظواهر، وكل القضايا، وكل العقول. عندئذ تخرج البشرية من المرحلة الطائفية الهمجية، لكي تدخل في المرحلة الحضارية العقلانية. وعندئذ يتم القضاء على التعصب الديني الذي يشبه الإخطبوط الأفعواني والذي كان يشكل عدوه الأول. ومعلوم ان هذا التعصب كان سبب المجازر والحروب الأهلية المدمرة التي جرت بين المذاهب المسيحية آنذاك. ليس غريباً، والحالة هذه، أن يكون نيتشه الذي لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب قد أهداه كتابه المعروف «فيما وراء الخير والشر» قائلاً: إلى فولتير، أحد كبار محرّري الروح البشرية!..

ولم يكن فولتير يتوانى عن التدخل في القضايا الساخنة في عصره، خاصة قضايا الاضطهاد الديني الذي يلاحق الناس على آرائهم وعقائدهم الداخلية. وقد أحدث ضجة كبرى وشغل فرنسا كلها بقضية «كالاس»: أي تلك العائلة البروتستانتية المضطهدة من قبل الأغلبية الكاثوليكية في مدينة تولوز. فقد لاحقوها وحاصروها ومزقوها إربا اربا في نهاية المطاف.

وضرب بذلك مثلاً على الجرأة والشجاعة وتطبيق أفكاره على أرض الواقع وعدم الاكتفاء بالتنظير المجاني كما يفعل بعض المثقفين. ودشن بذلك صورة المثقف "الملتزم" بالمعنى الحديث للكلمة: أي المثقف الذي يمثل ضمير الأمة بأسرها في لحظة ما من لحظات التاريخ. إنه المثقف الذي ينهض ضد مذهبه أو طائفته إذا لزم الأمر. وسار على هديه في القرن التاسع عشر فيكتور هيغو وإميل زولا، وفي القرن العشرين جان بول سارتر وميشيل فوكو وجيل ديلوز ومكسيم رودنسون وآخرون عديد ون. وأصبح قدوة او مثلا يحتذى.

في عام ١٧٧٨ صدر فرمان عن قصر فرساي يقول بأنه لا مانع من عودة فولتير إلى باريس. ويضيف الأمر الملكي قائلاً: إننا لا نرحب به ولا نتمنى عودته، لكننا لن نقبض عليه إذا ما عاد...

وفوراً يعطي فولتير الأوامر للخدم والحشم بتحضير العربة وإسراج الجياد. فقد طال الغياب. ثلاثون سنة ولم يكحّل عينيه برؤية مسقط رأسه باريس وضواحيها: هناك حيث توجد مرابع طفولته وذكريات الشباب الأول.. ثلاثون سنة وهو محروم منها في المنافي القريبة او البعيدة. كل البلاد كانت مفتوحة أمامه ما عدا بلده الأصلي. وفي أقل من عشرة أيام يقطع «الختيار» تلك المسافة الفاصلة بين الحدود السويسرية والعاصمة الفرنسية (أو قل العاصمة الثانية، لأن العاصمة الأولى كانت آنذاك فرساي).

وما ان سمعت باريس بالخبر حتى هبّت عن بكرة أبيها تستقبله. وحصل الهرج والمرج وامتلأت الشوارع بالبشر، ورفعت صوره كالأعلام في كل مكان. واشتد الازدحام على باب الفندق الذي ينزل فيه إلى درجة أن أصدقاءه خافوا عليه، وكان قد بلغ من العمر عتياً (٨٤ عاما) ولم يبق له إلا ثلاثة أشهر لكي يعيش. وراح يستقبل الوفود تلو الوفود على الرغم من اعتلال صحته. واحتشدت الجماهير تحت نافذته لكي تلمحه ولو للحظة وصعدت الهتافات من كل مكان... استشاط الملك على عرشه في قصر فرساي غضباً، لكن من دون أن يستطيع ان يفعل شيئا. كل ما فعله هو أنه منع زوجته (ماري أنطوانيت) من حضور حفل تتويج فولتير في مسرح «الكوميديا الفرنسية». وقد كانت راغبة في ذلك. كانت تريد أن ترى بأم عينيها أشهر شخصية أنجبتها فرنسا في ذلك الزمان. وتضاءلت كل الشخصيات الكبرى أمامه، ومن كان كبيراً أصبح صغيراً. ويقال بأنه حتى الفيلسوف ديدرو هرع مسرعاً للمثول بين يديه كتلميذ. كذلك فعل بقية الفلاسفة وكل ما تمتلكه فرنسا من عقول.

ولكن هل يستطيع أن يستقبل كل شخصيات باريس من أرستقراطيين وبورجوازيين وعلماء وكتّاب؟ وعلى الرغم من أن فندقه كان مراقباً من قبل المخابرات الملكية وأن الشخصيات الوافدة كانت تخاطر بنفسها أو بمناصبها، إذا ما زارته إلا أنها ما انفكت تتوافد عليه كالخيط الطويل الذي لا ينقطع. وخيّم الصمت الرهيب على السوربون (قلعة الرجعية الكاثوليكية والجمود الفكري في ذلك الزمان). وسكت البرلمان. وبدا واضحاً أن فولتير والشعب والنخبة المستنيرة في جهة، ولويس السادس عشر والكهنة الأصوليين والطبقات الإقطاعية المترفة في جهة أخرى. نحن الآن عام ١٧٧٨. يكاد يُسْمَع هدير الثورة الفرنسية!.

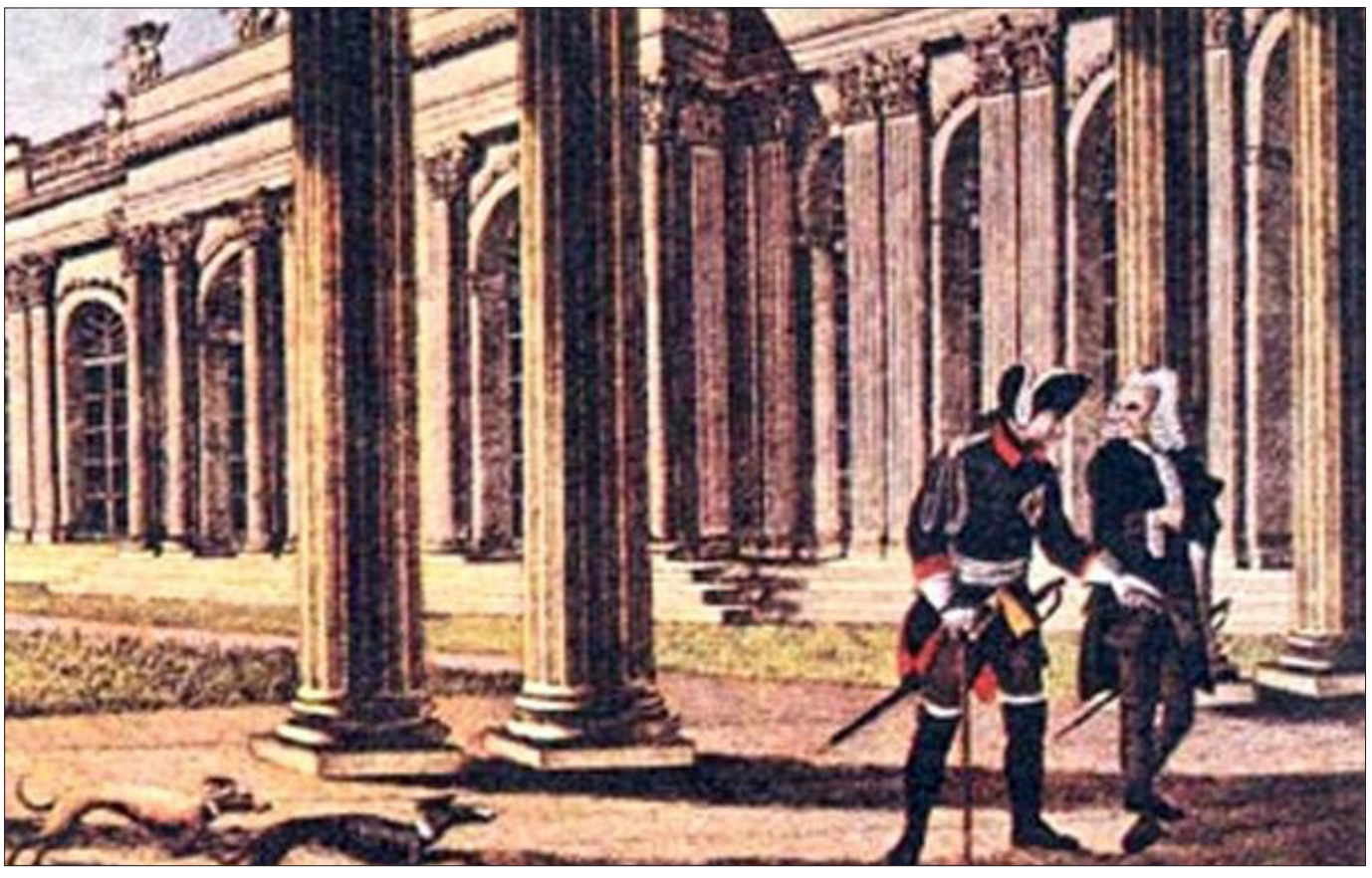

Gallery

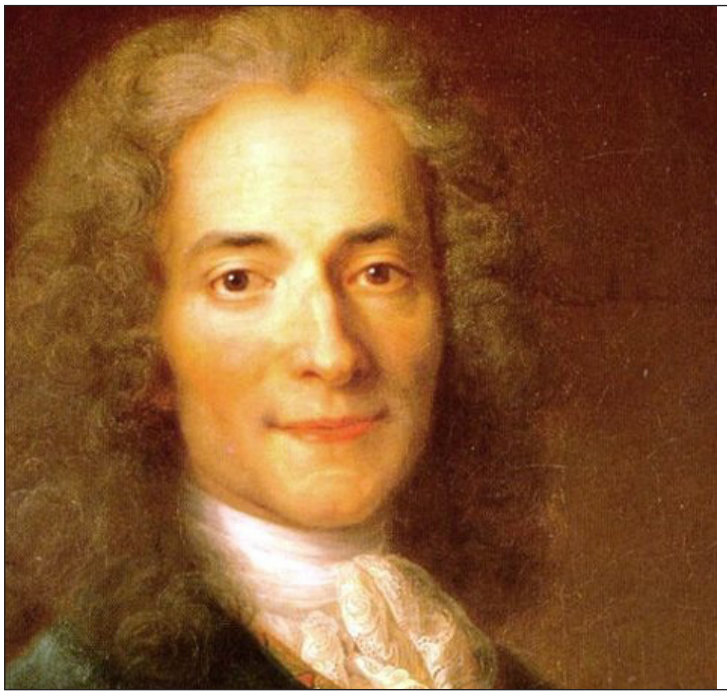

من الرموز الفكرية الكبيرة التي اسست لحركة التنوير الفكري الاوروبي نجد المفكر فرنسوا ماري أروي François Marie AROUET المشهور بـ«فولتير» والذي عاش في الفترة ما بين (١٦٩٤-١٧٧٨). فقد كان العدو اللدود للتعصب والمتعصبين، وخصما لدودا للكنيسة، ولعب فكره دورا مهما في إنضاج الأوضاع والتمهيد للثورة الفرنسية. فقد أصدر كتابه المشهور عن التسامح في عزّ المعركة التي كانت دائرة في فرنسا بين المتعصبين المتطرفين والفلاسفة حول حرية الاعتقاد والضمير، وحول الأقلية البروتستانتية، وحول عائلة «كالاس» البروتستانتية في مدينة تولوز وما أصابها من ويلات على يد الغوغائيين والمتطرفين الكاثوليكيين.

فولتير والتنوير

صبحي درويش

ويقول ويل ديورانت صاحب كتاب (قصة الحضارة) إن القوانين كانت تقضي في تلك الأيام «بأن يوضع جثمان المنتحر منكساً عارياً على حاجز من العيدان المشبكة ووجهه إلى الأسفل ويسحب بهذه الطريقة عبر الشوارع وبعدئذ يعلق على المشنقة». ولكي يتجنب المدعو (كالاس) هذه الفضيحة فقد حاول بكل سبيل ممكن أن يخرج بوثيقة تقول إن ابنه مات ميتة طبيعية. ولكن إشاعة رهيبة انتشرت في البلد تقول إن الولد لم يشنق نفسه بل إن جان كالاس قتل ابنه حتى يحول بينه وبين اعتناقه الكاثوليكية كما فعلت أخته من قبل. فألقي القبض على الرجل وبدأوا في تعذيبه حتى مات. وهربت عائلته إلى «فيرني» لتقص الفاجعة على فولتير. ومن منفاه أطلق الرجل صيحته المعروفة «اسحقوا العار».

وعلى الرغم من أن فولتير ينتمي، من حيث أصله العائلي، إلى مذهب الأغلبية الكاثوليكية إلا انه وقف بحزم لصالح هذه العائلة المضطهدة ودافع عن حق البروتستانتيين في الوجود وممارسة شعائرهم ومعتقداتهم. عندما طالب فولتير بالتسامح مع البروتستانتيين المضطهدين والمحتقرين من قبل الأغلبية الكاثوليكية، فإن الأمر لم يصل به إلى حد مساواتهم الكاملة في الحقوق مع الكاثوليكيين لأنه كان يعرف أن هذا الشيء مستحيل في وقته. ولكن مع ذلك حسبه فخراً انه تجرأ على تحدي النزعة الشعبوية الغوغائية ووقف إلى جانب الحق والعدل ضارباً عرض الحائط بكل انتماءاته المذهبية والعائلية.. وهكذا أصبح مضرب المثل على انخراط المثقف في القضايا العامة، ومخاطرته بنفسه وطمأنينته أحياناً من أجل القضايا العادلة. ومشى على خطاه في القرن التاسع عشر فيكتور هيغو واميل زولا، وفي القرن العشرين جان بول سارتر وميشيل فوكو من جملة آخرين عديدين. وأصبح يمثل الضمير الحي لكل امة عندما تصبح مسألة الحقيقة والعدالة على المحك.

ويعتبر فولتير تلميذ الفيلسوف الانجليزي جون لوك الذي نشر كتاباً يحمل عنوان: «رسالة في التسامح»، وكان ذلك منذ عام ١٦٨٩. وبعده نشر فولتير كتابه بعنوان: «مقالة في التسامح»، وهذا يعني أن الفرنسيين والانجليز والأوروبيين بشكل عام كانوا مشغولين آنذاك بمسألة التعصب الديني ويحاولون أن يجدوا لها حلاً أو علاجاً. وكان فلاسفة أوروبا لا يتخذون الموقف الديماغوجي المتواطئ مع العصبيات الشعبوية. بل ينخرطون في مناقشة ما كان «تابوهات، حقيقية متحملين المسؤولية والتعذيب. وعلى هذا النحو استطاعوا أن ينهضوا بشعوبهم ويسيروا بها على درب التقدم والرقي. وفولتير من ابرز الذين قضوا حياتهم في المنفى من أجل أفكارهم، وكتب ٩٩ كتاباً وعاش حتى سن ٨٣ وسجن في الباستيل مرتين وضربه الأوغاد بتوصية جيدة من النبيل (دي روهان) أن يشبعوه ضرباً دون رأسه فقد يخرج منه يوما شيئا عظيما.

وهرب إلى بريطانيا وفي فترة السنوات الثلاث التي قضاها هناك لاحظ الفرق، فوصف بريطانيا «بأن فيها شعباً له آراؤه الخاصة وحريته المميزة، شعباً أصلح دينه وشنق مليكه وأنشأ برلمانا أقوى من أي حاكم في أوربا ولا وجود فيه للباستيل وفيه ثلاثون مذهبا دينيا بدون قس واحد». وعندما اندلعت حرب السنوات السبع بعد زلزال لشبونة صب فولتير كل جهده ضد الحرب ووصفها بأنها «أم الجرائم وأعظم الشرور وكل دولة تحاول إلباس جريمتها ثوب العدالة. إن القتل حرام وجميع أنواع القتل يعاقب عليها القانون زمن السلم. أما إذا نفخ في الصور وأعلنت الحرب فيصبح القتل بالألوف مباحاً». وهو يقول في ختام مقال له عن الإنسان في قاموسه الفلسفي «يحتاج الإنسان إلى عشرين سنة كي يبلغ أشده منذ كان جنينا في بطن أمه فحيوانا في طفولته وشابا حين نضوج عقله، وثلاثة آلاف سنة ليكشف القليل عن جنسه، والأبد إلى أن يعرف شيئا عن نفسه. ولكن دقيقة واحدة تكفي لقتله».

لقد قضى فولتير حياته من أجل (حرية التعبير) وأطلق شعاره المعروف «إنني مستعد أن أموت من اجل أن أدعك تتكلم بحرية مع مخالفتي الكاملة لما تقول».. ومن هنا ضرورة إحياء مبدأ فولتير الذي يعد إنجازاً هائلاً في تاريخ الإنسان والرأي. وهو مكون من ثلاث فقرات: تقول الأولى أن المسألة لا تدور حول الصواب والخطأ لأن هذا محتم لكل واحد منا. وقداعتبر (ليسنغ)- وهومن فلاسفة التنوير- أن الله «لو وضع الحق في يمناه والشوق إلى البحث عن الحقيقة في يسراه ومعها الخطأ لزام لنا. يقول ليسنغ إنه سيخر على ركبتيه ضارعاً إلى الله أن يمنحه الشوق الخالد إلى البحث عن الحقيقة لأن الحقيقة النهائية هي لله وحده». وفولتير حينما يطلق حرية التعبير بدون حدود يخلق مناخ الحوار الذي يعدل الخطأ وينضج الصواب. وفي الفقرة الثالثة منه يقول فولتير أنه سيدافع عن رأي الآخر حتى لو كان خطأ محضاً ليس دفاعاً عن الخطأ بل دفاعاً عن التعبير. لأن الخطأ يحق له أن يعيش. فهذا الذي أطلقه فولتير في أوربا كان له أثر هائل في نشوء حق التعبير والاجتماع عليه والتظاهر سلمياً. وهذا يوصلنا إلى حل إشكالية كبيرة وهي أن حق التعبير مرتبط بواجب التعبير. فما هو حق لطرف واجب على الطرف المقابل. وإذا كان الحاكم يمنع الناس من التعبير والتظاهر فلأنهم يمنعونه من الوجود. وهناك من يتمنى موت الحاكم ولكنه ينسى في غمرة هذه الشهوة أن تمني الموت للآخر هو في الواقع تمني الموت لنفسه، لأن مشكلة الأمة ليست معلقة بموت وحياة وفرد. وعندما نتمنى الموت للآخرين تنقل عدواها إلينا فنموت نحن أيضاً. وعندما ينتخب الحاكم مائة بالمئة فإنه يعني أن الأمة أصبحت صفرا بالمئة. وعندما تعلق صور الزعماء إلى الدرجة المقززة فهو يعني أن الزعيم التهم الأمة. وهي تنتظر دورها لالتهامه. وذرية بعضها من بعض. وثقافة مريضة تعيد إنتاج نفسها.

وفولتير هو أول من اعتبر أن التاريخ ليس سير الحروب والملوك بل مغامرات العقل، وأن تاريخا بلا فلسفة وفن لا يبقى منه شيء. وأن التاريخ لن يقف على قدميه ما لم نبعد عنه اللاهوت.

ولم يرجع إلى باريس التي ولد فيها إلا قبل موته بقليل وعندما جاءه القس ليسمع اعترافه سأله فولتير عمن أرسله فقال: الله؟ فسأله فولتير أن يقدم أوراق اعتماده من الله فولى ولم يعقب؟ وعند لحظة الموت جاءه قس ثان رفض تقديم الغفران له ما لم يوقع على اعترافه وإيمانه الكاثوليكي إيمانا راسخا، فطرده وسجل الكلمات التالية «أموت على عبادة الله ومحبة أصدقائي وكراهية أعدائي ومقتي للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين».

كان فولتير مؤمناً ومضاداً للتعصب في آن معا. وكان يؤمن بإله كل الكائنات وكل العوالم. وبالتالي فالله ليس للمسيحيين فقط، أو للمسلمين أو لليهود، وإنما لكل البشر، كلهم عباد الله ويستحقون رحمته وغفرانه، إذا كانت أعمالهم صالحة وسلوكهم مستقيماً في المجتمع. وكل عقيدة فولتير تتلخص بكلمة واحدة: عبادة إله الحق والعدل، وحب البشر، كل البشر بغض النظر عن أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم.

ولأن فولتير فتح الأفق أمام إيمان آخر جديد غير الإيمان المتعصب القديم، فإنه استطاع أن ينتصر على التعصب والمتعصبين.

كانت أوروبا في عصر فولتير متعصبة، جاهلة، وإذا كنا نرى

أوروبا الحديثة مليئة بالحريات ولا أثر للإرهاب الديني فيها، فلا يجب ان نتخيل أنها كانت دائماً هكذا!.

هذا خطأ كبير نقع فيه بسبب انعدام الحسّ التاريخي لدينا، أو على الأقل ضموره.. وبالتالي فإذا كان رجال الدين اليوم متسامحين في أوروبا أو غير قادرين على قمع حرية الفكر والنشر، فإن الفضل في ذلك يعود إلى المعارك الطاحنة التي خاضها اشخاص مثل فولتير أو جان جاك روسو أو ديدرو أو سواهم من فلاسفة التنوير. ومع الأسف ما زال هناك في مجتمعاتنا من يظن بأن حرية الفكر تقود إلى الكفر، وأن حرية المرأة تقود إلى الفسق، وأن العقل محدود فلا يمكن إطلاقه إلا كما نفعل مع طير القفص بتعريضه للهلاك. وهناك من يرى أن كل الخطر في تلقي العلوم الإنسانية في الفلسفة والتاريخ وعلم النفس والاجتماع. فهذه أفكار أربع تأسيسية تناقض الفكر مع الإيمان، والعقل محدود الطاقة، ويجب عدم السماح للكفر بالتعبير عن نفسه خوفاً من هزيمة الإيمان إذا ظهر في ساحة المواجهة. وبكلمة أخرى، بناء الأفكار على الإكراه.

إن تفكيراً من هذا النوع يبدو من خلال فلسفة وتفكير فولتير خسوفاً كلياً لشمس العقل، وضرباً من الإعاقة العقلية كما عند المشلولين، وانقطاعاً عن مسيرة الفكر الإنساني يحشرنا في شرانق محنطة من تراث لم ينجح في نقلنا إلى المعاصرة حتى الآن. والأهم عدم القدرة على التخلص من العقل النقلي والرسوخ في أسار من التقليد لا نهاية لها. وإذا كان التراث قد كتب في ظروف مشبوهة من الانسحاق السياسي بيد وعاظ السلاطين، فهو تراث لا علاقة له بمفاهيم القرآن، ولا يمثل أكثر من تراكمات لأفكار فقدت فعاليتها في عالم يحكمه منطق الفعالية. ومن الغريب أن فلسفة القرآن تناقض مفاهيم المسلمين المسيطرة، فهو يفترض أن الإيمان مؤسس على (التفكير) و(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب). أما نحن فنفزع من التفكير. وأمرنا: وقل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق؟ ونحن ننغلق على النص، وننفك عن الواقع والتاريخ، مع أنهما مصادر المعرفة. والعلم كم تراكمي لا نهاية له: وفوق كل ذي علم عليم. ونحن نطالب من حولنا أن لا يطلعوا أو يطالعوا وأن يغلقوا عيونهم، ونصدر المذكرات والمنشورات في تحريم القراءة من كتب بعينها، كما فعلت الكنيسة من قبل. وكتابات سارتر الوجودي بقيت حجراً محجوراً حتى نهاية الستينات. وإذا كانت الكنيسة قد أحرقت العلماء وكتبهم مع الساحرات في الساحات العامة وعالجت السعال الديكي بلبن الحمير، فقد أحرقت كتب ابن رشد وحبس رهن الإقامة الجبرية مع اليهود والصعاليك. فأن الكون لم ينته خلقه: ويزيد في الخلق ما يشاء.

ونحن نعلم اليوم أن التاريخ لم يبدأ بعد، وما زالت الإنسانية في مرحلة الطفل ولا نملك إلا ملاحظة الكم الهائل من الإنتاج المعرفي الوارد إلينا من الغرب، بدءا من داروين الذي كتب أصل الأنواع عام ١٨٥٩، وانتهاء بدونالد جوهانسون الذي كشف عن هيكل لوسي عام ١٩٧٨، الذي يعود لأكثر من ٣,٤ مليون سنة. وكل من غطس في التاريخ لفهم قوانين حركته، مثل (ويلز) صاحب كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) أو البريطاني (توينبي) صاحب كتاب (مختصر دراسة التاريخ) أو الأمريكي (ويل ديورانت) صاحب سفر التاريخ بـ ٤٢ مجلداً عن (قصة الحضارة). فضلا عن أن كل الإنتاج المعرفي في علوم الذرة أو المجرة كان من عند غيرنا، بدءا من تركيب العناصر في الجدول الدوري للعناصر الذي كشفه (ديمتري مندلييف) الروسي، وانتهاء باكتشاف تمدد الكون على يد الأمريكي ادوين هابل، أو تركيب الذرة على يد الدانماركي نيلز بور، أو فك إشكالية حركة الإلكترون في قانون الارتياب على يد الألماني فيرنر هايزنبرغ، أو معنى الحضارات وحركة التاريخ على يد (اوسفالد شبنجلر) الألماني، أو حركة المجتمع وتشريحه على يد الفرنسي أوجست كومت، أو قوانين علم النفس عند النمساوي فرويد أو سكينر من المدرسة السلوكية وفيكتور فرانكل وابراهام ماسلو من مدرسة علم النفس الإنساني.

وهكذا فالإنتاج المعرفي، شئنا أم أبينا، يهبّ علينا اليوم بماء منهمر برياح موسمية شمالية غربية.هناك آلية خفية يعيش فيها كل إنسان ولا يتفطن إليها وهي ارتباط النص مع حركة الواقع، كما يحدث من انفكاك عمود الحركة في السيارة عن العجلات فتتوقف عن السير. وعندما تنفك هذه الآلية لا ينتفع الإنسان من أي شيء حوله. ونحن اليوم نملك أعظم المصادر ويصب الذل على رؤوسنا مع شروق كل شمس، يقوم جدل التاريخ على الصراع بين (الحضارة) ضد (البربرية) و(التسامح) ضد (التعصب) و(التقدم) ضد (التخلف).

وعندما دمر الأسبان حضارة «المايا» واحرقوا كل كتبهم إلا ثلاثة، لم تقرأ لغتهم حتى الآن ولم تعرف ثقافتهم على وجه التحديد، كان مصير الأسبان اللعنة التي صبها المبشر (لاس كاساس) على رؤوسهم. فتراجعت اسبانيا تحت ظلامية التعصب إلى الزاوية المهملة من أوروبا، مع أنها كانت القوة الأولى في العالم، وأغنى إمبراطورية وأعظمها اتساعا وأفضلها تسلحا وأكثرها امتلاكا لعابرات المحيط مما يذكر بسفن الفضاء الحالية.ولم تستيقظ اسبانيا من اثر التحنيط العقلي الديني إلا على صدمة الوحدة الأوروبية، وقفزت إلى الواجهة الأمم الانجلوسكسونية الأكثر انفتاحا وعقلانية.

ان العودة الى فكر فولتير وفلسفته يشكل بالضرورة مدخلا لتنوير فكرنا في اتجاه دحض التعصب الديني و تشييد حضارة قائمة على الحوار والتحاور.

فولتير رائد من رواد فلسفة التنوير في القرن الثامن عشر

محمد زكريا توفيق

جان جاك روسو

قابل فيليب الثانى، الوصي على العرش الفرنسي، أيام لويس الخامس عشر، فولتير فى أحد الحدائق العامة فى يوم من الأيام وقال له: «سيد أرويه، أراهن على أننى أستطيع أن أريك شيئا لم تره من قبل « فقال فولتير: «ماهو؟» أجاب الوصي بسرعة: «سجن الباستيل من الداخل» وبالفعل، كان فولتير داخل الباستيل فى اليوم التالي. فمن هو فولتير هذا؟ هو كاتب، وشاعر، وفيلسوف. يعده الأوروبيون واحدا من أبرز أدباء حركة التنوير في القرن الثامن عشر. إسمه الأصلي «فرانسوا ماري أرويه». ولد فى باريس(١٦٩٤-١٧٧٨م). نشأ فى وسط بورجوازي معارض. وكان يعمل والده محاميا لدى الدوق «دى روشيليو» و«الدوق دي سان سيمون».

تعلم في معهد يسوعي، ودرس الأدب اللاتيني واللغات والمسرح. ورفض دراسة القانون وفضل دراسة الأدب والإشتغال به. عمل لفترة مساعدا لسفير فرنسا في لاهي ثم عاد إلى باريس سنة ١٧١٤م. وعمل فترة أخرى في مكتب موثق عقود وفيها تعرف على بعض النبلاء، وراجت بينهم أشعاره الساخرة، خصوصا ما كان يقرظه في هجاء «فيليب الثانى» الوصي على العرش. فتم سجنه بسبب ذلك لمدة عام فى سجن الباستيل سنة ١٧١٦م.

في سجن الباستيل، اتخذ اسم «فولتير» لقلمه. وكتب أيضا ملحمته «هنرياديه»، التى تروى فى الظاهر، قصة حصار «هنرى الثالث» لباريس عام ١٥٨٩م، لكنها بين سطورها، تنتقد السلطة الدينية فى عصره. وكان لا يسمح له بورق كتابة داخل السجن. فكان يكتب بين سطور أحد الكتب المطبوعة. أفرج عن فولتير فى إبريل ١٧١٨م. عندما قرر الوصى على العرش أن سنة كاملة فى سجن الباستيل تعتبر ثمنا عادلا لكتابة أغنية.

كتب مسرحية «أوديب» فلاقت نجاحا كبيرا، وكانت قد عرضت فى أحد مسارح باريس لمدة ٤٥ يوما متتالية، وهذا أمر لم تبلغه مسرحية أخرى فى تلك الأيام. واعترف به كأعظم شاعر في فرنسا. وبلغت شهرته الآفاق، وأصبح حديث صالونات باريس. فى أحد حفلات العشاء، أشار إليه النبيل «شيفاليه دى روهان شابوت» متسائلا: «ما اسم هذا الشاب ذو الصوت العالي؟» فجاء الجواب سريعا من فولتير: «سيدى اللورد، إنه واحد من اللذين لا يجرون أسماء طويلة خلفهم، لكنه يستطيع أن يحمي ويشرف الاسم الذى يحمله» وبعد يومين، قام إثنان من البلطجية، كان قد إستأجرهما شيفاليه، بضرب فولتير علقة ساخنة. وفى اليوم التالي، ظهر فولتير فى المسرح يعرج وهو مضمد بالأربطة، واقترب من شيفاليه، وقد كان حاضرا، طالبا منه المنازلة. ولم يكن شيفاليه خبيرا بإستخدام السيف، لذلك تجنب المبارزة. لكنه فى نفس الوقت رتب مع السلطة أمرا بالقبض على فولتير. وفى عام ١٧٢٦م، وجد فولتير نفسه مرة ثانية فى سجن الباستيل، لكن بعد عدة أسابيع، أفرج عنه بشرط أن يذهب إلى المنفى فى إنجلترا.

كانت هذه نقطة تحول خطيرة فى حياته. وبذلك تكون أيام التهريج والفوضى قد ولت إلى غير رجعة، وجاء وقت النضج والمسؤولية. وأصبح بحر المانش يفصل بين عهدين فى حياته. عهد الهزل وعهد الجد.

تحول نفى فولتير إلى إنجلترا من عقاب إلى مكافأة. فقد أصبحت إنجلترا لفولتير بمثابة وطنه الثقافي الرئيسي كما كانت «لإراسموس (Erasmus)» فى القرن الخامس عشر. وفى عامه الأول، لاحظ أن صديقاه، «ألكساندر بوب» و«جوناثان سويفت»، يكتبان ما يحلو لهما بدون خوف أو مطاردة من السلطات. فكتب إلى أحد أصدقائه: «هنا فى إنجلترا يمكن للإنسان أن يستخدم عقله بدون خوف أو تذلل. هنا يوجد شعب مستقل ومتحضر، ثار على نظام الحكم القديم. فلا يوجد سجن الباستيل، ولا يوجد إضطهاد ديني.

قام فولتير أثناء نفيه إلى فرنسا، بدراسة الدستور البريطاني، الذى يكفل الحرية والتسامح لكل الطبقات. وقضى وقتا كبيرا مع «بولنجبروك» و«سويفت» و«بوب» و«كونجريف». ودرس بعمق مسرح شكسبير وفلسفة «لوك» ونظريات «نيوتن» العلمية. وتأثر تأثرا كبيرا بكتاب «الفهم الإنساني» «لجون لوك»، ومعقولية «فرانسيس بيكون»، وأفكار الإصلاح «لتيندال».

لقد حلق فولتيرفى عالم آخر من القيم الرفيعة الراقية. وهنا أصبح الشاعر، مؤرخا وفيلسوفا. بعد أن اتسع أفقه. ومعه، اتسع أفق القارة الأوروبية كلها. وقال عنه «جورج براندیس»: «أعطته إنجلترا نقطة إرتكاز أرشميدس خارج فرنسا، ومنها إستطاع أن يرفع فرنسا ومعها القارة كلها»

لكن أهم شئ فى هذه القصة، هى إحساسه بالحرية فى بلد حر ديموقراطى. الحرية الإنجليزية أصبحت بالنسبة له مثلا أعلى. هنا، لا أحد يمكن أن يفقد حريته بأي سلطة من السلطات. ولا أحد يمكن أن يعاقب بدون محاكمة. هنا حرية كاملة للكتابة والخطابة والصحافة. وتسامح ديني كامل بين الأديان المختلفة. لقد رأى الآن الفرق بين نظامين. بدا واضحا فى كتابه «رسائل عن إنجلترا» التى تعتبر نقطة إنطلاق، وبداية الثورة الفرنسية.

لقد كتب، بالنسبة للحرية الدينية عند الإنجليز، أن الرجل الإنجليزى، يذهب إلى الجنة عن طريق الدرب الذى يختاره هو بمحض حريته. وبالنسبة للحرية السياسية، يقول أن إنجلترا هي البلد الوحيد على سطح الكرة الأرضية الذي تحجم سلطة الملوك فيه. فالحاكم تترك له كل السلطة لفعل الخير، وفى الوقت نفسه تكبل يديه عن فعل الشر.

مدة النفي في إنجلترا كانت ثلاث سنوات. بعدها عاد فولتير إلى فرنسا. ليكتشف أن السلطات كانت قد أعدت أمرا كتابيا باعتقاله. وحتى لا يعيش مع فئران الباستيل مرة أخرى، فر هاربا من باريس. وإختبأ فى سيريه عند الماركيزة «إيميلي شاتيليه» التي وقع لتوه فى غرامها. وأقام عندها مدة ١٦ عاما. كانت كلها سنين إنتاج وسعادة. ففي خلالها، كتب تراجيديتين وروايتين وكتاب عن حياة وعصر «لويس الرابع عشر» وبحث عن السلوك.

التاريخ الحديث لم يبدأ بكتابات «ويلز» و«روبنسن»، وإنما بدأ بكتابات فولتير. فهو أول من أضاف البعد الإنساني للتاريخ. وأول من صاغه على هيئة عمل درامي، وليس مجرد سرد لحقائق وتواريخ جامدة وأسماء معارك وملوك. لقد رأى فولتير التاريخ من منظور التطور والنمو الإنساني. لذلك يعتبر فولتير أبو التاريخ الحديث عن جدارة.

كان عصر لويس الرابع عشر بالنسبة له، عصر إنجاز للفنانين والعلماء والفلاسفة،

لا عصر المغامرات الحربية والمناورات السياسية. وقد كتب فريدريك الأكبر عن فولتير: «كتاباته التاريخية تعتبر كنوزا للعقل. تدل على عبقرية فى التأليف، وشرفا للعصر الذي نعيش فيه وللعقل الإنساني بمجمله»

ذهب فولتير بناء على دعوة «فريدريك الأكبر» إلى بوتسدام. لكنه لم يستقر بها طويلا بسبب غيرة المنافسين وحسد الحساد. ثم ذهب إلى جينيف وقام بشراء فيلا على بحيرة هناك. لكنه لم يستقر بها أيضا بسبب الإضهاد الديني له. فقرر ترك جينيف والذهاب إلى فيرني حيث قام ببناء وحدات سكنية للعمال ومصانع صغيرة. وقام بزراعة ٤ آلاف شجرة. وقام بتوظيف المئات من العمال اللاجئين.

في هذه الأثناء كتب أشهر أعماله، رواية «كانديد». التي يسخر فيها من فلسفة «روسو» و«ليبنتز». فنحن نعيش فى عالم، ليس فيه كل شيء على ما يرام. والحلول لا تكون إلا بإستخدام العقل والعلم. والرواية تمثل البحث عن شيء ذات معنى، في عالم مجنون مجنون مجنون.

السلاح الوحيد الذى يمكن إستخدامه ضد القوة الغاشمة والسلطة المستبدة، هو القلم والعقل والذكاء. فالقلم أمضى من السيف. وكانت كتاباته تتسم بالدقة والوضوح. وهو أسلوب نجده واضحا فى كتابات «فلوبرت» و«رينان» و«أناضول فرانس».

كان المسيحيون البروتستانت في تولوس فرنسا غير مسموح لهم بمزاولة مهنة الطب أو المحاماة، أو أمتلاك محلات بقالة أو مكتبات، أو حتى مزاولة مهنة المولدات.

وفي يوم من الأيام، ترك «مارك كالاس» الأبن عائلته وذهب إلى أقرب كوخ ليشنق نفسه.

جاءت الشائعات تتهم «جين كالاس» الأب البروتستانتي الديانة، بقتل إبنه مارك بسبب تحوله إلى الكاثوليكية. وسرعان ما تم القبض على الأب وباقى العائلة. وحكم على الأب، بعد محاكمة سريعة غير عادلة لم يسمع فيها شهود النفي، بالتعذيب والإعدام.

تعرض الأب المسكين لعمليات تعذيب تفوق الوصف. فقد نزعت عظام يديه ورجليه من مفاصلها بآلة خاصة. وكان يضرب بقضبان الحديد على صدره لتحطيم ضلوعه.

وزبانية الجحيم تراعي بقاءه أطول مدة حيا حتى يتجرع من الآلام والعذاب أشده وأقساه. ثم بعد ذلك تم شنقه وحرق جثته.

عندما وصلت الأخبار إلى فولتير، إستشاط غضبا. وأيقن أن بريئا تم تعذيبه وقتله شر قتلة ظلما. فقرر تبني هذه القضية والدفاع عن شرف هذه الأسرة وإعادة الإعتبار لها. فقام بالتفرغ لهذه القضية لمدة ثلاث سنوات متصلة. أخذت كل وقته وفكره وجزءا من ثروته. قام خلالها بالإتصال بكل أصدقائه أصحاب النفوذ. منهم ملك بروسيا وإمبراطورة روسيا. وأقنع الصحافة الإنجليزية بتبني القضية ونشرها في كل أوروبا. وأخيرا نجح فى إعادة المحاكمة بقضاه محايدين. قاموا بسماع شهود النفي لأول مرة. وإنتهت بتبرئة الأب الذي قتل ظلما بسبب التعصب وضيق الأفق.

أعلن فولتير منذ ذلك الوقت الحرب على التعصب وعدم التسامح الديني الذي إستعبد أوروبا آلاف السنين. وكان يقول: «كفى حرق الكتب، والإطاحة برؤوس الفلاسفة وإعدام الأبرياء بحجة أنهم يدينون بديانات مختلفة. هذا عار يجب أن يمحى. الإنسان يحب أن يتحرر من خرافات العصور الوسطى، ومن سلطة الحكومة الدينية. الإنسان يجب أن يحكم بالحجة والعقل.»

هيغل

في رسالته عن التسامح الديني وفي كتابه قاموس الفلسفة، يؤكد حرية العقيدة، والأخوة الإنسانية. وينتقد الخطاب الديني الرسمي. وينادي بفصل الدين عن الدولة.

ويبتهل إلى الله بالدعاء التالي:

«إلهي، ألتجئ إليك يا خالق كل شئ، أن لا تجعل الكره والبغضاء بين البشر يستشري، بسبب الفروق التافهة بين ملابسنا أو قوانينا، أو لغاتنا المختلفة أو عاداتنا المضحكة أو آرائنا الغبية أو مراكزنا الإجتماعية. هذه فروق تبدو عظيمة لنا بسبب جهلنا، ولكنها متساوية وليست فروقا على الإطلاق بالنسبه لك. فاجعلهم يتذكرون دائما أنهم لازالوا إخوة وأخوات»

وتأتي النهاية فى ٣٠ مايو ١٧٧٨م. لكن الكنيسة تقوم برفضت مراسم دفنه. فقام أصدقاؤه بدفنه خلسة فى سيليريه. وبعد ١٣ سنة في عام ١٧٩١م، عندما كانت الثورة الفرنسية فى أوجها، أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية أمرا بنقل جثمان فولتير إلى البانثيون إلى جوار رفاة «جان جاك روسو» وباقي عظماء فرنسا، وسط مراسم دفن عظيمة حضرها ٦٠٠ ألف فرنسي. وكتبت على عربة الدفن العبارة: «شاعر وفيلسوف ومؤرخ. أعطى العقل الإنساني دفعة هائلة، وأعدنا للحرية»

هذا الرجل، كتب يوما إلى «جان جاك روسو»: «أنا لا أتفق مع كلمة واحدة مما تقول. لكنني أدافع حتى الموت عن حقك لكي تقولها»

وعلى قبره، كتبت لافتة تقول: «حارب المتعصبين والمتزمتين، ودعا إلى روح التسامح الديني، وطالب بحقوق الإنسان ضد العبودية، وحارب نظام الإقطاع. شاعر، ومؤرخ، وفيلسوف. جعل آفاق النفس البشرية تتسع، وتتعلم معنى الحرية».

فلسفة التعبير عند
فولتير

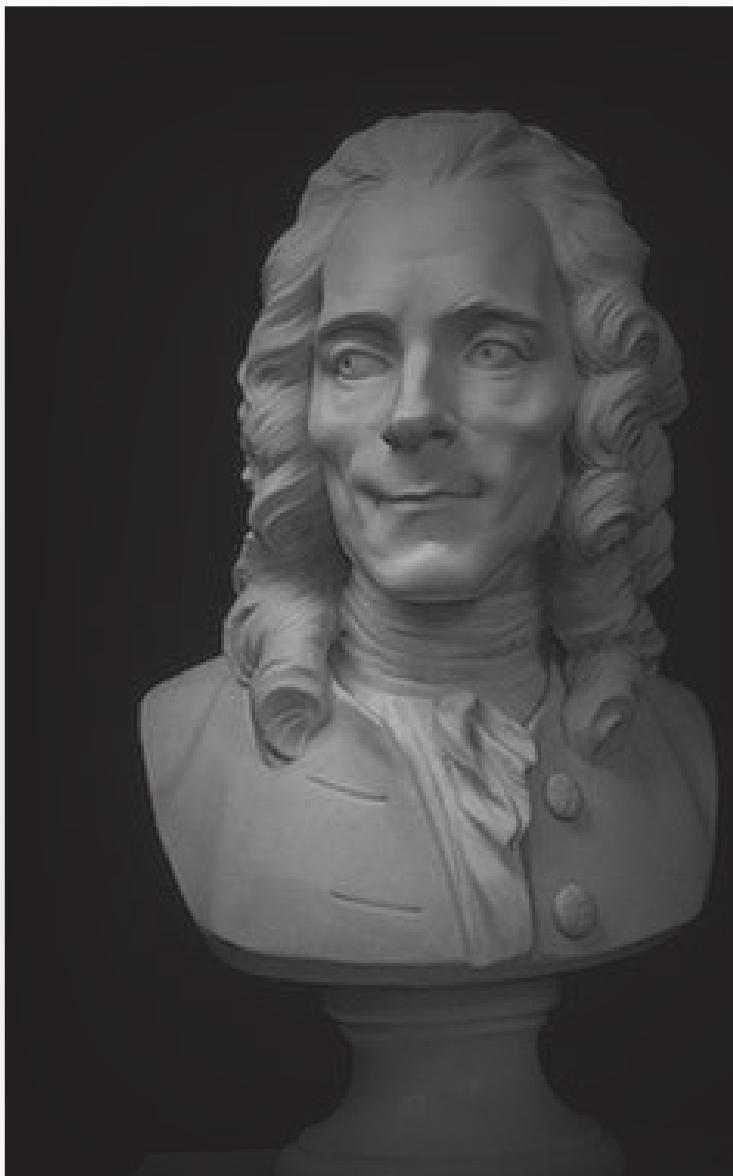

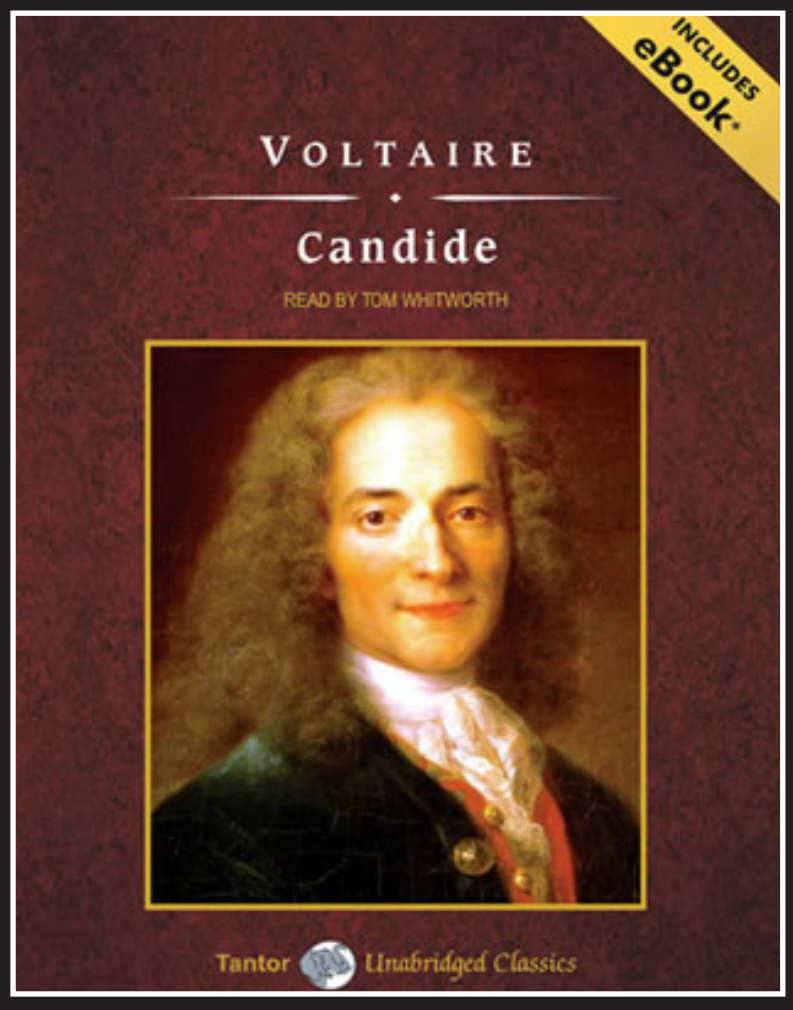

في عام ١٧٦١ كان الفيلسوف الفرنسي (فولتير) ملتجئاً إلى مدينة (فيرني) السويسرية، بعد أن نجا بجلده من الملك فردريك الألماني، ومنعه الملك الفرنسي من دخول الأراضي الفرنسية. وحتى يكون بمنأى من بطش الاثنين فقد استراح هناك؛ فإن طاردته الاستخبارات البروسية هرب إلى فرنسا، وإن طالته الجواسيس الفرنسية هرب إلى ألمانيا.

وكان في مدينة (تولوز) الفرنسية القريبة رجل يدعى (جان كالاس) بروتستانتي المذهب وله بنت اعتنقت الكثلكة. وفي يوم شنق ابنه نفسه بسبب الإحباط في سوق العمل. وكان رجال الدين الكاثوليك يتمتعون بسلطة مطلقة في المدينة، ولا يسمح لأي بروتستانتي في تولوز أن يكون محامياً أو طبيباً صيدليا أو بقالاً أو بائع كتب أو طبّاعاً. ومُنع الكاثوليك من استخدام أي خادم أو كاتب بروتستانتي. وفي يوم حُكم على امرأة بغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك لأنها استعانت بقابلة بروتستانتية.

ويقول (ويل ديورانت) صاحب كتاب (قصة الفلسفة) إن القوانين كانت تقضي في تلك الأيام "بأن يوضع جثمان المنتحر منكساً عارياً على حاجز من العيدان المشبكة ووجهه إلى الأسفل ويسحب بهذه الطريقة عبر الشوارع وبعدئذ يعلق على المشنقة"؟

ولكي يتجنب المدعو (كالاس) هذه الفضيحة فقد حاول بكل سبيل ممكن أن يخرج بوثيقة تقول إن ابنه مات ميتة طبيعية. ولكن إشاعة رهيبة انتشرت في البلد تقول إن الولد لم يشنق نفسه بل إن جان كالاس قتل ابنه حتى يحول بينه وبين اعتناقه الكاثوليكية كما فعلت أخته من قبل. فألقي القبض على الرجل وبدأوا في تعذيبه حتى مات. وهربت عائلته إلى فيرني لتقص الفاجعة على فولتير. ومن منفاه أطلق الرجل صيحته المعروفة "اسحقوا العار".

لعل فولتير من القلائل الذين قضوا حياتهم في المنفى من أجل أفكارهم وكتب ٩٩ كتاباً وعاش حتى سن ٨٣ وسجن في الباستيل مرتين وضربه الأوغاد بتوصية جيدة من النبيل (دي روهان) أن يشبعوه ضرباً دون رأسه فقد يخرج منه يوما شيء عظيم؟

وهرب إلى بريطانيا خائفا، وهو أول من اعتبر أن التاريخ ليس سير الحروب والملوك بل مغامرات العقل، وأن تاريخا تسحب منه الفلسفة والفن لا يبقى من شيء يسمى تاريخا. وأن التاريخ لن يقف على قدميه ما لم نبعد عنه اللاهوت.

وهو نفس المسار الذي سلكه ابن خلدون من قبل. ولم يرجع إلى باريس التي ولد فيها إلا قبل موته بقليل، وعندما جاءه القس ليسمع اعترافه سأله فولتير عمن أرسله فقال: الله؟ فسأله فولتير أن يقدم أوراق اعتماده من الله فولى ولم يعقب؟

وعند لحظة الموت جاءه قس ثان رفض تقديم الغفران له ما لم يوقع على اعترافه وإيمانه الكاثوليكي إيمانا راسخا فطرده وسجل الكلمات التالية "أموت على عبادة الله ومحبة أصدقائي وكراهية أعدائي ومقتي للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين" ووقع هذا البيان في ٢٨ شباط من عام ١٧٧٨.

إن العصر الذي عاش فيه (فولتير) كان يسجل تبايناً في الحريات على طرفي بحر المانش وفي فترة السنوات الثلاث التي قضاها هناك لاحظ الفرق فوصف بريطانيا "بأن فيها شعبا له آراؤه الخاصة وحريته المميزة. شعب أصلح دينه وشنق مليكه وأنشأ برلماناً أقوى من أي حاكم في أوروبا ولا وجود فيه للباستيل، وفيه ٣٠ مذهبا دينيا من دون قس واحد". وأعجب جدا بالحركة الدينية السلامية الكويكرز. وفي رسالة نشرها فولتير عن (أسئلة زاباتا) وكان المدعو راهباً سمح لعقله بمناقشة المسلمات فقال عندما يختلف مجلسان فيلعن أحدهما الآخر فمن نصدق؟ وعندما فشل في الحصول على جواب بسيط بدأ الرجل يدعو إلى الله على نحو بسيط فكان جزاؤه أن أحرق حيا عام ١٦٣١.

ومنه اعتبر فولتير أن "أن أول كاهن كان أول محتال قابل أول أحمق" وعندما وقع زلزال لشبونة فانهدمت الكنائس على رؤوس الناس فمات في ساعتين ثلاثون ألفاً من الناس سخر من التفسيرات التي قدمت بأنها انتقاما من الله ضد الكاثوليك. وظهر صدق كلامه حينما ضرب الزلزال الجامع المنصور في طنجة في المغرب وأكمل طريقه إلى حافة الاطلنطي الأخرى فهدم مدينة بوسطن بزلزال أشد على رؤوس البوريتانيين. في الوقت الذي كان الناس في المراقص في باريس يلعبون. وعندما اندلعت حرب السنوات السبع بعد زلزال لشبونة صب فولتير كل جهده ضد الحرب ووصفها بأنها "أم الجرائم وأعظم الشرور وكل دولة تحاول إلباس جريمتها ثوب العدالة. إن القتل حرام وجميع أنواع القتل يعاقب عليها القانون زمن السلم. أما إذا نفخ في الصور وأعلنت الحرب فيصبح القتل بالألوف مباحاً".

وهو يقول في ختام مقال له عن الإنسان في قاموسه الفلسفي "يحتاج الإنسان إلى ٢٠ سنة كي يبلغ أشده منذ كان جنينا في بطن أمه فحيوانا في طفولته وشاباً

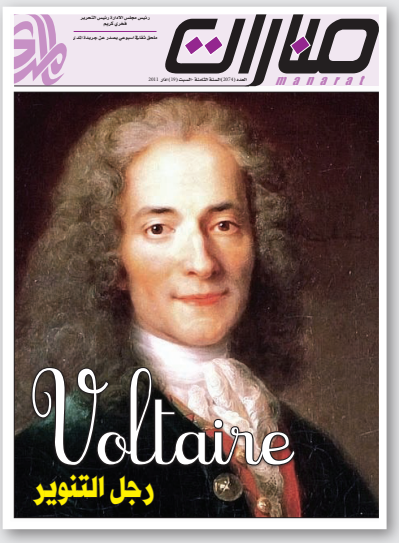

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

فخري كريم

التحرير

نزار عبد الستار

التصميم

مصطفى جعفر

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

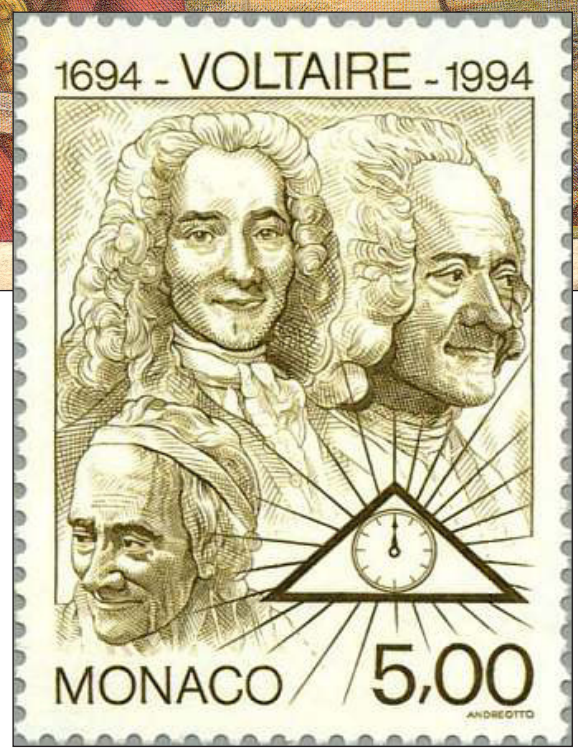

حين نضج عقله، وثلاثة آلاف سنة ليكشف القليل عن جنسه، لابد إلى أن يعرف شيئاً عن نفسه. ولكن دقيقة واحدة تكفي لقتله".

والذي يجعلني أنفض الغبار عن التاريخ لنستعيد ذكرى رجل قضى حياته من أجل (حرية التعبير) وأطلق شعاره المعروف "إنني مستعد أن أموت من اجل أن أدعك تتكلم بحرية مع مخالفتي الكاملة لما تقول، ولكن السؤال من سيعطي الحريات؟ ولمن؟ وما هي الحريات؟

ولفك هذه الإشكالية يجب إحياء مبدأ فولتير الثلاثي الذي يعد إنجازاً هائلاً في تاريخ الإنسان والرأي. وهو مكون من ثلاث فقرات:

. تقول الأولى إن المسألة لا تدور حول الصواب والخطأ لأن هذا محتم لكل واحد منا.

. وفولتير حينما يطلق حرية التعبير من دون حدود يخلق مناخ الحوار الذي يعدل الخطأ وينضج الصواب.

. وفي الفقرة الثالثة منه يقول فولتير إنه سيدافع عن رأي الآخر حتى لو كان خطأ محضاً ليس دفاعاً عن الخطأ بل دفاع عن التعبير، لأن الخطأ يحق له أن يعيش. فهذا الذي أطلقه فولتير في أوروبا كان له أثر هائل في نشوء حق التعبير والاجتماع عليه والتظاهر سلمياً.

وهذا يوصلنا إلى حل إشكالية كبيرة وهي أن حق التعبير مرتبط بواجب التعبير. فما هو حق لطرف واجب على الطرف المقابل. وإذا كان الحاكم يمنع الناس من التعبير والتظاهر فلأنهم يمنعونه من الوجود. وهناك من يتمنى موت حاكم عربي ولكنه ينسى في غمرة هذه الشهوة أن تمني الموت للآخر هو في الواقع تمني الموت لنفسه، لأن مشكلة الأمة ليست معلقة بموت وحياة وفرد وعندما نتمنى الموت للآخرين تنقل عدواها إلينا فنموت نحن أيضاً.

وعندما ينتخب الحاكم ١٠٠ ٪ فإنه يعني أن الأمة أصبحت صفرا ٪. وعلى هذه المقدار تنكمش الأمة فمن ينتخب ٩٩ ٪ فهو يعني أن الأمة أصبحت واحد ٪. وعندما تعلق صور الزعماء إلى الدرجة المقززة فهو يعني أن الزعيم التهم الأمة. وهي تنتظر دورها لالتهامه. وذرية بعضها من بعض. وثقافة مريضة تعيد إنتاج نفسها. وتبقى المسألة تراوح في مكانها بين متحيّر وغاضب ويائس وحاقد. كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها.